

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
المركز الجامعي العقيد آكلي محند أولحاج
بالبويرة
معهد اللغات و الأدب العربي
قسم اللغة و الأدب العربي

الشعبوية في العصر العباسي - أبو نواس أنموذجا -

إشراف: * - مصطفى ولد يوسف.

إعداد: * - نادية زخروف.
* - سامية صفوان.

السنة الجامعية: 2010/2009

إهداء

إلى جوهرتي قلبي ، إلى من أوصاني بطاعتها ربّي
إلى من رافقاني بالحبّ و الرّعاية و الدّعاء في مسعاي و دربي
أمّي الحنون حورية ، كنت و لا تزالين الأمّ الودود ،
و أبي الغالي حسين ، كنت و لا تزال الأب المساند ،
و كانت نادية معكما و لكما وفيّة للعهود و الوعود.

✚ إلى من كللوا نجاحي بالبهجة و التشجيع ؛ إخوتي و أخواتي ،
✚ إلى من ضحى بجهده من أجل راحتي أخي العزيز رابح ،
✚ إلى التي جعلت من جهدها جهدين ؛ جهد لراحتي و جهد لدعمي ، أختي الوفية
زهية.
✚ إلى قرة عينيّ والديهما و كتكوتي خالتهما نانا ، سارة ، و سمية ،
✚ إلى عائلتي الثانية ، إلى الذين لا أنتقصهما حبًا عن أبي حسين و أمي حورية ،
✚ إلى والديّ الكريمين ، أمي عيدة ، و أبي إبراهيم -حفظهم الله جميعا-
و أبقاهم الله تاجا على رأسي.
✚ إلى إخوتي و أخواتي
✚ إلى الذي جعل من البكاء بسمة ،
✚ و ناضل من أجل أن يجعل النجاح بصمة على اسمي "زوجي الغالي".
✚ إلى من قاسمتني أطراف هذا البحث ، و شاركتني زمنه ؛ صديقة قلبي سامية.
✚ إلى صديقاتي غنية، صافية، سامية دلسي ، وهيبّة ، فاطمة الزهراء. ، حورية ،
نصيرة ، عائشة و حنان.
✚ إلى مكتبة النجاح التي كانت وفيّة لنا ،
و حاضرة دوما لمساعدتنا.

نادية

إهداء

✚ إلى من كرمها الرحمن بذكرها في القرآن ، و شرّفها العدنان بقوله تحت أقدامها الجنان... ، إلى
من كان صدرها كالسمااء ...
إلى من نتوّجها دائما أميرة في مملكة القلب ...
إلى التي لا تكفيها ضلوعي لو كانت قلما ، ولا دم عروقي لو كان مدادا...
إلى التي لا تكفيها كل الكلمات...
إليك أمي
✚ إلى من غمرني شغفا و جعل الحياة تسري في داخلي...
إلى من كانت عيونه تضيء دربي...
إلى من أزاح الغشاوة عن عيوني و علّمني زرع الأمل ، و حفّزني لتحقيق أحلى الأمناني...
إليك أبي الغالي
✚ إلى من مهّدوا طريقي نحو العلى... إلى شموع البيت و أنوارها...
إليك إخوتي؛ محمد ، دحمان ، نبيل.
✚ إلى من كان عوني و سندي... و لو صح لي لناديته أبي...
إليك أخي الكبير؛ رشيد و زوجته.
✚ إلى شمعة البيت التي تضيء أركانها و تبعث فيه البهجة و السرور... إليك أختي نعيمة.

✚ إلى من كانت دعواتهما سراجا في دجى الحياة ،
إليكما جدّاتي الغاليتين أطل الله في عمرهما.
✚ إلى من كنّ رفيقات دربي و شقيقات روحي و صديقات قلبي،
إليكنّ: نعيمة، شفيقة، مريم.
✚ إلى من غمرتني بحبها و حنانها، إليك؛ مريم سليمانى.
✚ إلى جميع صديقاتي؛ عتيقة، حليلة، نوال، زهرة، غنية، هودة ، صبرينة و خيرة.
✚ إلى من رافقتني أطراف النهار و سهرت معي أناء الليل ، إلى من شاركتني هذا العمل و
تحملتني طول العام...
✚ إليك صديقتي الغالية و توأم روحي؛ نادية و زوجها العيد.
✚ إلى كل من يعرفني و ساهم و لو بجزء قليل في إنجاز هذا العمل.

سامية

المقدمة

عرف العصر العباسي نوعا من الإزدواجية في ثورات أدبية و أخرى سياسية ، فالأولى تجلّت في ارتفاع صوت القلم ، و الثانية تكمن في المواجهة الكلامية ، و إن كانت الأولى تتضمّن الثانية ، فكلاهما ولدا من جديد بدخول السلطة الفارسية التي أوقدت نيران البركان ثانية بين العرب و الأعاجم ، بعد أن خمد لهيبها ، و هذا ما يعرف بالشعبوية ، و هذا ما اخترناه ليكون موضوع بحثنا ، و قد اخترنا كنموذج لهذه الظاهرة أبا نواس الذي ثارت قريحته الشعرية حولها.

و من أهدافنا وراء اختيارنا لهذا الموضوع هي:

- 1- البحث عن الجذور التاريخية لهذا المصطلح.
- 2- استظهار المعنى الحقيقي له.
- 3- إتماما للدراسات السابقة عن هذه الشخصية.

و لتحقيق مبتغانا من وراء هذا الموضوع لا بدّ أن يتمّ تحصيل الإجابة عن الأسئلة التالية:

متى ظهر هذا المصطلح و ما هي العوامل المؤدّية إلى ظهوره ؟ ، و هل كان لهذه الظاهرة حظ مع أبي نواس ؟.

و للإجابة عن كل هذه التساؤلات أدرجنا خطة شملت على مقدمة ، تمهيد ، فصلين ، و خاتمة ، ففي التمهيد تناولنا لمحة عن العصر العباسي ، أما الفصل الأول جاء تحت عنوان: الشعبوية ، و قد انصبّ على ثلاثة محاور هي:

- 1- تعريفها ، مراحلها و أشكالها.
- 2- أهدافها و أساليبها.
- 3- الرّد على الشعبوية.

و أما الفصل الثاني فقد اقتصر على أبي نواس و تجلّيات الشعبوية في شعره ، و تضمّن العناصر الآتية:

- 1- تعريفه و شعره.
- 2- شعوبيته.
- 3- تجلّيات الشعبوية في شعره و حقيقتها فيه.

و ختمنا بحثنا هذا بخاتمة أردناها أن تكون حوصلة لما قدّمناه.

و قد شكّل بحثنا خليطا من المناهج تمثّلت في المنهج التاريخي: و فيه سردنا الإطار الزمني و المكاني و الجغرافي للعصر العباسي ، و تاريخ هذه الظاهرة ، ثم المنهج الإجتماعي: الذي خدمنا في إبراز الشعبوية كظاهرة اجتماعية ، و كذا إبراز شخصية أبي نواس كفرد عاش في كنف هذا العصر ، و كذلك المنهج النفسي: المناسب لطرح الحالة النفسية التي دفعت أبا نواس لأن يعيش هذه الظاهرة.

و قد اعتمدنا في ذلك على جملة من المصادر و المراجع التي كانت هي الأخرى معينة لهذا البحث و ركيزته ، و منها نذكر:

- أحمد عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعبوية.
 - محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعبوية في الأدب العربي.
 - إيليا الحاوي ، شرح ديوان أبي نواس.
 - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي.
- و في الأخير لا يفوتنا ذكرا أن نتقدم بالشكر الجزيل لأستاذنا الكريم ، الذي كان لنا خير معين.
و في الختام الحمد و الثناء لربّ الخلق جلّ و علا ، الذي
أنار دربنا - و حقّق مسعانا - و سدّد خطانا.

تمهيد

أ- سياسيا و تاريخيا:

تعود بداية العصر العباسي إلى سنة 132هـ ، و هو التاريخ الذي يؤذن بمقتل آخر خلفاء بني أمية "مروان بن محمد" ، و من ثم سقوط الدولة الأموية ، و قيام الدولة العباسية التي تنتسب إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول - صلى الله عليه و سلم - ، و اختار الخليفة "أبو جعفر المنصور" بقعة طيبة بنى فيها حاضرة لدولته الجديدة ، و هي التي أسماها بعد ذلك "بغداد" ، والتي أصبحت عاصمة الخلافة العباسية.

ب- جغرافيا :

تعد بغداد حاضرة الدولة العباسية المترامية الأطراف ، والتي كانت تمتد حدودها من الصين وأوساط الهند شرقا ، إلى المحيط الأطلسي غربا ، من المحيط الهندي والسودان جنوبا ، إلى بلاد الترك والروم و الصقالبة شمالا.

واتسعت رقعة الدولة العباسية اتساعا عظيما ، وضمت بين جناحيها بلاد السند و خراسان ، وما وراء النهر والعراق وإيران والجزيرة العربية والشام ، ومصر والمغرب ، وهي أوطان كثيرة كان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة.

ج- فكرا :

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي ، الذي بلغ فيها المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ، حيث أثمرت فيه الفنون الإسلامية ، وزهت فيه الآداب العربية ، ونقلت العلوم الأجنبية ونضج فيها العقل العربي².

حيث أن العربي لم يجد سبيلا إلا للبحث والتفكير ، وما ساعده على ذلك هو تغلغل العنصر الفارسي في شؤون الخلافة العباسية ، فالفرس أعانوا العباسيين في الوصول إلى السلطة ، وعملوا على الإطاحة بالأمويين ، وما يعرف عن الفرس أنهم ذوو ثقافة واسعة في شتى المجالات ، ولم يكن بوسع العباسيين إلا الإندراج و الإنزواء تحت لواء حكمهم ، والأخذ بمعارفهم ، والعمل على نشرها ، ومن هنا كانت إرادة الإنسان العربي وقوة فكره أقوى بكثير مما كانت عليه في العصر الأموي ، خاصة وأنه بحاجة إلى الكتابة و قد وجدها في معارف الفرس.

فقد شهد هذا العصر من الثقافات والعلوم ما يؤهله لينال لقب العصر الذهبي ، وهذا طبيعي في وسط راجت وامتزجت فيه الحضارات ، فالدولة العباسية اصطبغت بصبغة فارسية ، وهذه الأخيرة تملك من العلوم والمعارف تأثر بها العباسيون إلى حد بعيد تجلى ذلك في ازدهار أدبهم حيث ازدهر الشعر في ذلك العصر ازدهارا كبيرا شهد بذلك المؤرخون و النقاد والدارسون ، إذ أكبّ الأدباء على العربية يتقنونها و يمتثلون ملكاتها و سلبقتها تمثلا دقيقا ، نافذين بدوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفى يجمع بين الجزالة و الرصانة حينا ، و بين الرقة و العذوبة حينا آخر ، و كان تأثرهم عميقا بالثقافات المترجمة ، و بما كانوا يستمعون إليه من محاورات و مناظرات ، و بما انطبع في نفوسهم و عقولهم من المعاني و الخواطر التي لا تكاد تحصى³.

فالدولة العباسية باعتبارها قوية العماد ، و ذات سلطة يتحكم في زمامها النفوذ الفارسي الزاخر بمعالم ثقافية و حضارية ، و هذا الأخير يعتبر مؤثرا فعّالا في نمو الشعر في هذا العصر و تفوّقه ، فقد حقّق تطوّرا كبيرا في أغراضه و أفكاره و في شكله الفني وزنا وقافية و لغة ، بحيث دفع التحضر شعراء العصر العباسي إلى استخدام أساليب جديدة و ابتكار معاني رائعة ، و أجادوا اختيار الألفاظ ، و كأنما هي جواهر تختار في عقود⁴.

فلم يجعل الشاعر همّه سوى إخراج شعره في أبهى حلة ، و الحرص على مواكبة شعره حالة العصر و مقتضيات الحياة الجديدة في كنف النفوذ الفارسي الذي تعج فيه الحركية ، فهذا الشعر هو لسان البيئة العباسية ، و الشاعر هو المسير و الموجّه لهذا اللسان ، "و كل واحد من الشعراء يحاول أن يثبت مهارته في صياغته و سيكه بما ينتخب من الكلمات التي يحسن وقعها في السمع ، و التي تصنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة"⁵.

و ليس ذلك ببعيد على الشاعر العباسي الذي يحسن الصنع في شعره ، إذ ما هو إلا نتيجة طبيعية شملت جميع جوانب الحياة بما فيها العقلية و الدينية و اللغوية و الأدبية و الفلسفية ، و أدى كل هذا

1- زين الدين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق ، في الأدب العباسي والأندلسي ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر ، 2006 ، ص 05.

2- أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ط 24 ، للمدارس الثانوية والعليا ، دت ، ص 210.

3 - يراجع: زين الدين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي و الأندلسي ، ص 05.

4 - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

5 - زين الدين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي و الأندلسي ، ص 05.

إلى اتساع حركة التأليف ، و علاوة على ذلك كان هناك "وجود من الخلفاء و الأمراء مؤازرا و من الحضارة و الطبيعة ناصرًا"¹.

و قد حدثت للشعر عوارض أثرت في أسلوبه و معانيه و أغراضه و أوزانه ، فأما التأثير في أسلوبه ، فقد تم هجر الكلمات الغريبة ، و استحداث البديع و الإستكثار منه ، و ترك الإبتداء بذكر الأطلال إلى وصف القصور و الخمر و الغزل ، فاللغة المستعان بها في العصر العباسي نجدها مهذبة عذبة ، و هذا تحصيل حاصل لأن الانتقال من البداوة إلى الحضارة ، و من الريف إلى المدينة جعل اللغة تنهذب. و فيما يخص معانيه ، فقد حصل اقتباس للأفكار الفلسفية ، إذ نجد أكثر شعراء هذا العصر وليد جنسيتين ، و ربائب حضارتين مختلفتين ، و لهذا التقارب من الأثر في الفكر و العقل و ما يعلل لنا و فرة المعاني الجديدة عند بعض الشعراء منهم أبو نواس.

و أما في أغراضه (الشعر) ففيها مبالغة في وصف الخمر و مجالسها و وصف الرياض و الصيد. و أغراض الشعر العباسي منها ما جد و استحدث ، و من بين هذه الأغراض نجد الزهد الذي كان أبو العتاهية رمزا بارزا فيه و كذا أبو نواس ، و هناك أغراض بقيت على ما كانت عليه مع شيء من التجديد في بعض عناصرها ، فمنها على سبيل المثال المديح.

و أما أوزانه فبالإكثار من النظم في البحور القصيرة و ابتداع أوزان أخرى كالمستطيل و الممتد و هما عكس الطويل و المديد و الموشح و الزجل ، و في تجديد الشعراء في القافية استحدثوا ما يسمى بالمزدوج و المسمطات ، و السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا حصل تغيير في العصر العباسي على مستوى الأوزان و رغم أنه ما كتب في الجديد كتب على القديم؟.

لعل ذلك راجع إلى أن الشعراء الذين قالوا في العصر العباسي و اشتهروا في المرحلة العباسية نجد أكثرهم فرس ، فأثاروا صبغة الجدة في الحضارة العربية ، إضافة إلى أن الفرس كان شعرهم غنائي².

و على ما شهده العصر العباسي من امتزاج حضاري أسفر عنه ظهور أشياء جديدة لاستيعاب هذا النسق ، فالشعر كان معروفا ، فهو قاصر لا يكفي وحده للإمام بهذا المناخ الثقافي و هذا التجديد ، و بالتالي لا بد من ظهور شيء آخر يضاهي الشعر في العصر العباسي يتمثل في النثر ، فهذا الأخير صار ينافس الشعر في هذا العصر على غرار ما كان عليه من قبل ، و هذه نتيجة حتمية اقتضتها البيئة العباسية المنطوية تحت اللواء الفارسي و المقلدة لثقافته.

"لقد كان لذلك الانقلاب العباسي أثر كبير و عظيم في العقول و الميول ظهر على أقلام الكاتبين و ألسنتهم ، فقد استنبطوا عيون المعاني ، و تخيروا شريف الألفاظ ، مما لم يكن حوشيا و لا سوقيا ، و فتحوا أبواب البديع و عنوا بالتنميق و التنسيق"³.

عرف العصر العباسي أشكالا متنوعة من النثر تمثلت في الخطابة بفروعها الدينية و السياسية و الحفلية ، "فكان للخطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس و سلطان على القلوب ، لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك و تحميس الجند و استقبال الوفود"⁴.

كما ظهر نوع آخر من النثر كان له صدى واضح في التعبير عن قريحة العربي وسط هذا المناخ المحشو بالثقافات و تتمثل في الرسائل الدينية و ما يلحق بها من العهود و الوصايا و التوقيعات.

د- اجتماعيا:

هكذا كان إذن فكر العربي في هذا العصر ، ولد طفلا ، ليكبر رجلا ، و ينشأ شاعرا أو أديبا ، أو الإثنين معا ، و رغم ما كان عليه هذا العصر من رواج للمعارف و العلوم ، و رغم ما أسهمه في نضوج للفكر الإنساني العربي ، إلا أن ذلك شكل من جهة أخرى خطرا بين صفوف الأجناس حتى غدت هناك نوع من العنصرية ، ألهبت صدور البعض ، "فالدولة العباسية قد اصطبغت بصبغة فارسية ، لأن الفرس هم الذين أوجدوها"⁵.

1 - أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص 250.

2 - يراجع: أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص 251 - 252.

3 - أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص 215.

4 - تاريخ الأدب العربي ، ص 218.

5 - تاريخ الأدب العربي ، ص 211.

فالفرس كما - أسلفنا الذكر - أعانوا العباسيين في الوصول إلى السلطة و العباسيون بدورهم أسندوا الوزارة إلى الفرس كرد للجميل الذي صنعوه معهم ، و قد خُلف هذا التمازج الحضاري أو التمازج بين الحضارتين آثارا على المستوى الإجتماعي في هذا العصر ، و بدت هذه الآثار واضحة جلية من نواحي عدة منها الأخلاق و العادات و التقاليد ، فمن ناحية الأخلاق يتمثل ذلك في اللهو و الغناء ، و بالنسبة للعادات و التقاليد فهي تشمل الطعام و الشراب و اللباس.

و من أهم آثار هذا الإمتزاج أيضا نجد ذبوع العبث و المجون ، و المجون ظاهرة بدأت مع طلائع العصر الأموي ، و مع مجيء العباسيين إلى الحكم خاصة في القرنين الثاني و الثالث للهجرة ، تغيرت أوضاع المجتمع ، و من أسباب انتشار هذه الظاهرة ظهور الزنادقة و انتشار الجواري ، و قد ساهمت هذه الظاهرة في انتشار الشعر العباسي الجديد ، و من أهم أولئك الشعراء الذين اشتهروا بهذا الفن الشعري هو "مطيع بن إياس" ، كما تعدّ الزندقة إحدى الآثار التي خلفها هذا التمازج ، و كلمة الزندقة ذات أصل فارسي ، كانت أشد الثورات بأسا و أكثرها خطرا في العصر العباسي الأول ، و يرجع تاريخها إلى العصر الأموي ، و قد ضمت الكثير من الشعراء منهم "بشار بن برد"¹.

و من أهم المظاهر التي خلفها هذا التمازج الحضاري أيضا نجد "الشعوبية" ، فالدولة العباسية بمعية الفرس شعروا بالإستعلاء و التفوق على من دونهم ، مغترين بما لديهم ، إذ "كالوا للعرب من الحقارة و المهانة صاع بصاع ، فضعت العصبية العربية ، و علا صوت الشعوبية"².

تجلت الشعوبية كظاهرة في العصر العباسي بخاصة ، و من الذين برزوا فيها نجد الشاعر "أبو نواس" ، الذي هو موضوع دراستنا ، و سنتطرق لها بمزيد من الشرح و التفصيل في متن هذا البحث.

فالعصر العباسي إذن عرف من الأحداث ما يكفي لأن تعبر عنه أقلام الشعراء و الأدباء ، و هذا لم يكن وحيا أطلق على العباسيين ، و إنما يعد ميراثا عن الحضارة الفارسية.

الفصل الأول: الشعوبية

- تعريفها ، مراحلها ، و أشكالها.
- أهدافها و أساليبها.
- الرد على الشعوبية.

¹ - يراجع: أمين أبو الليل ، محمد ربيع ، العصر العباسي ، ج1 ، ط1 ، مؤسسة النشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، 2008 ، ص 27 - 29.

² - أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص 211.

التعريف بالشعوبية:

أ- لغة:

"الشعوبية" لغة مأخوذة من الفعل الثلاثي (ش ع ب) ، و قد وردت في عدة معاجم منها:

1- جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة شَعَب:

الشَّعْب: الجمع و التفريق و الإصلاح.

- قال الأصمعي: شَعَبَ الرجل أمره إذا شَتَّته و فرقه.

- و قال ابن السكيت في الشَّعْب: إنه يكون بمعنيين ، يكون إصلاحا ، و يكون تفريقا.

- و تقول التام شَعْبُهُمْ إذا اجتمعوا بعد التفرق ، و تفرَّقَ شَعْبُهُمْ إذا تفرَّقوا بعد الاجتماع.

- قال الطرماح:

شَتَّ شَعْبَ الحَيِّ بَعْدَ النَّوَامِ و شَجَاكَ اليَوْمَ رُبْعَ المَقَامِ.

أي شَتَّ الجميع.

و الشَّعْبُ: الصدغُ و التفرُّقُ في الشيء ، و الجمع شعوبٌ.

و الشعب: القبيلة العظيمة ، و قيل: الحي العظيم يَتَشَعَّبُ من القبيلة ، و قيل هو القبيلة نفسها ، و الجمع

شعوبٌ ، و الشعب: أبو القبائل الذي ينتسبون إليه أي يجمعهم و يضمهم ، و جاء في محكم التنزيل قوله

جل شأنه: " و جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا و قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا "1.

- قال ابن عباس - رضي الله عنه - في ذلك: الشعوب الجُمَاع ، و القبائل البطون ، بطون العرب ، و

الشعب ما تشعب من قبائل العرب و العجم ، و كل جيل شعب.

- قال "ذو الرمة":

لَا أَحْسَبُ الدَّهْرَ يَبْلِي جَدَّةً ، أَبَدًا و لَا تَقَسَّمُ شَعْبٌ وَاحِدًا ، شُعْبٌ.

- و الجمع كالجمع ، و قد غلبت الشعوب ، بلفظ الجمع على جيل العجم ، حتى قيل لمحتقر أمر العرب:

شُعُوبِيٌّ ، أضاف إلى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم أنصاري ، و الشعوب فرقة لا تفضل العرب

على العجم.

- و الشُّعُوبِيُّ: الذي يصغر شأن العرب ، و لا يرى لهم فضلا على غيرهم ، و أما الذي في حديث

مسروق: أن رجلا من الشعوب أسلم ، فكانت تؤخذ منه الجزية ، فأمر "عمر" أن لا تأخذ منه ، قال "ابن

الأثير": الشعوب ههنا العجم و وجهه أن الشعب ما تشعَّبَ من قبائل العرب و العجم² ، فخص

1 - سورة الحجرات ، الآية 13.

2 - ابن منظور ، لسان العرب ، ج3 ، ط1 ، دار صادر ، بيروت ، 1997 ، ص 439.

بأحدهما و يجوز أن يكون جمع "الشُعوبيّ" هو الذي يصغّر شأن العرب كقولهم اليهود و المجوس في جمع اليهودي و المجوسي¹.

2- و جاء في معجم العين "للفراهيدي" في مادة شَعَبَ أيضا:

- الشُعْبُ: الصَّدَعُ الذي يَشْتَعِبُهُ الشَّعَابُ ، صنعته: الشَّعَابَةُ.

- و الشَّعْبُ: ما تشعب من قبائل العرب ، و جمعه شعوب ، و يقال: العرب شعب ، و الموالي شعب ، و التُّرْكُ شعب ، و جمعه شعوب.

- و الشُّعُوبِيُّ: الذي يصغّر شأن العرب ، فلا يرى لهم فضلا ، و التأم شعبهم : أي اجتمعوا بعد تفرّقهم².

3- كما جاء في كتاب مختار الصحاح "للرازي": (ش ع ب) ، الشَّعْبُ : ما تشعب من قبائل العرب و العجم ، و الجمع شعوب.

- و الشُّعُوبِيَّةُ : فرقة لا تفضّل العرب على العجم ، و الشَّعْبُ: القبيلة العظيمة ، و قال "أبو عبيد": الشعب أكبر من القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ³.

4- إضافة إلى ذلك ، ما جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة:

- شعب: جمع شعوب / جمهور ، جماعة كبيرة من النَّاسِ تسكن أراضي محدّدة ، و تخضع لنظام اجتماعي واحد ، و تجمعها عادات و تقاليد ، و تتكلّم لسانا واحدا ، و الشَّعْبُ العربي ، رجل من الشَّعْبِ.

- كما تعني كلمة شعوب: جماعة كبيرة ترجع لأب واحد ، و هو أوسع من القبيلة " و جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا و قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا "

- و كلمة شعوبي (مفرد): اسم منسوب إلى شعوبية: من يحط من قدر العرب لاعتناقه مذهب الشعوبية.

- و الشعوبية: (مفرد) تعني:

أولا: اسم مؤنث منسوب إلى شعوب ، على غير قياس عمل على إنهاء الأوضاع الشعوبية في العراق.

ثانيا: مصدر صناعي من شعوب: نزعة ظهرت في العصر العباسي تنكر تفضيل العرب على

غيرهم و تحاول الحط منهم و تفضل عليهم العجم⁴.

5- و قد جاء أيضا في معجم مقاييس اللغة "لابن فارس" في مادة "شعب": الشين و العين و الباء ، أصلان مختلفان: أحدهما يدل على الإفتراق ، و الآخر على الإجماع ، ثم اختلف أهل اللغة في ذلك ، فقال قوم: هو من باب الأضداد ، و قد نص الخليل على ذلك ، و قال آخرون: ليس ذلك من الأضداد إنما هي لغات.

- قال الخليل: من عجائب الكلام و وسع العربية: أن الشعب يكون تفرقا و يكون اجتماعا.

- و قال "ابن دريد": الشعب: الإفتراق ، و الشعب: الإجماع ، و ليس ذلك من الأضداد ، و إنما هي لغة لقوم.

- و الشعب: ما تشعب من قبائل العرب و العجم ، و الجمع: شعوب.

- قال جل ثناؤه: " و جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا و قَبَائِلَ " ، و يقال الشعب الحي العظيم⁵.

ما يمكن استنتاجه من مجمل هذه التعاريف يكون على النحو التالي:

1- أن مادة "شعب" تدل على التفريق و الجمع.

2- "الشعب" ما تشعب من قبائل العرب و العجم ، و جمعه شعوب ، و كلمة شعوب مستقاة من الآية

الكريمة: " و جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا و قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا "⁶.

1 - المصدر نفسه ، ص 440.

2 - الخليل بن أحمد الفراهيدي ، العين ، مج2 ، تح د/ عبد الحميد الهنداوي ، ط1 ، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2003 ، ص 333 - 334.

3 - عبد القادر الرازي ، مختار الصحاح ، ط1 ، دار الفكر ، 2007 ، ص 160.

4 - أحمد مختار عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة ، مج2 ، ط1 ، عالم الكتب ، القاهرة ، 2008 ، ص 1203 - 1204.

5 - أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ط1 ، دار إحياء التراث العربي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2001 ، ص 506.

6 - سورة الحجرات ، الآية 13.

3- الشعوبية مأخوذة من كلمة "شعب" ، و التي هي عبارة عن نزعة تحط من قدر العرب.

ب- اصطلاحا:

للسعوبية عدة تعريفات نجل بعضها فيما يلي:

1- الواقع أن الشعوبية بمفهومها الدقيق لم تنكشف تماما إلا في العصر العباسي الأول ، ففي كتابات الجاحظ و ابن قتيبة ، لا يوجد مجالا للفصل بين الشعوبية و التسوية ، بل يختلط اللفظان ، حيث يقول "الجاحظ" : "و نبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ، و من يتحلى باسم التسوية"¹. و يعود فيقول : " قالت الشعوبية ، و من يتعصب للعجمية"² ، و يعتبر ابن عبد ربه الشعوبية و هم أهل التسوية ، جماعة واحدة فيقول: "قالت الشعوبية و هم أهل التسوية"³.

و يفهم من ذلك كله على أن الشعوبية لا تملك مفهوما واضحا ، و إن كان لها مفهوم ، فذلك تغطي عبر العصور الأولى كلها ، لينكشف و يبرز بدقة في العصر العباسي ، كما أنه من الصعب الفصل بين الشعوبية و التسوية ، إذ هما وجهين لورقة واحدة ، فلا يوجد فرق بينهما ، و يتداخل اللفظان إلى درجة أنهما يختلطان ، فمثلا عند النطق بالشعوبية فكأنما تمّ النطق بالتسوية ، و العكس صحيح ، أو عندما تدور لفظة التسوية في الأذهان و يحوم التفكير حولها ، فكأنما كان التفكير في لفظ الشعوبية و العكس أيضا صحيح ، و يتجلى ذلك في كتابات الجاحظ و ابن قتيبة ، حيث يتفقان على مفهوم واحد ينطبق على لفظتي الشعوبية و التسوية.

2- و هناك من عرّف الشعوبية بكونها مذهبا جديدا و إن كانت بذوره قديمة ، ظهر نتيجة الخصومة الجنسية بين العرب و العجم ، فقد أخذ كل منهما يفتخر بماضيه ، و يعتز بحاضره ، و يعتلي على خصمه بما فيه و ما يكتنزه على ما يفتقر إليه خصمه⁴.

3- و أما "اللسان" فإنه يعطي تعريفا واضحا للشعوبية ، حيث يقول: "الشعوبية هو الذي يصغر شأن العرب ، و لا يرى لهم فضلا على غيرهم"⁵.

هذا التعريف حصر الشعوبية في النزعة التي تصغر شأن العرب ، و تحط من قدرهم ، و لا مكانة و لا فضل لهم على من سواهم.

فإذا حاولنا المقارنة بين التعريفات الثلاث ، نجد هناك فروق متباينة ، ففي تعريف الجاحظ و ابن عبد ربه للشعوبية نجده موازيا لأهل التسوية ، و التسوية تعني لا فرق بين عربي و عجمي إلا بالتقوى ، فهذا هو مفهوم الشعوبية عندهم ، في حين التعريف الثاني ، يعطي مفهوم آخر للشعوبية يتمثل في الفخر بالأصل و التباهي بالنفس ، و هذا يكون بين طرفين ، فالمسألة هي مسألة قول ورد ، فالعرب تمجد نفسها على العجم ، و تحط من شأن هذا الأخير ، و العجم ترفع الكف في وجه العرب لتفخر هي الأخرى بأصلها ، و هكذا كان الأمر قائما بينهما على من يجلب حصة الأسد لصفه ، أما التعريف الثالث ، خالف الأول ، و حذف شطرا من التعريف الثاني ليخصص الشعوبية بالفئة التي تصغر من شأن العرب.

و هكذا تبدو الفروق جلية بين هذه التعريفات الثلاث:

- فالأول: لا فرق بين العرب و العجم.

- و الثاني: تصغير و رفع و احتقار و ترفع.

- و الثالث: حط و ازدراء و تصغير من شأن العرب.

فمجرى النهر في الأول يسقي جميع الأراضي ، و في الثانية ينحاز تارة لأرض العرب ، و تارة أخرى لأرض العجم ، و في الثالثة يشق سبيله فقط لأرض العجم ، لتجف قطراته بأرض العرب.

أما إذا مثلنا بلغة العدالة ، فكفتي الميزان في التعريف الأول متكافئة ، و في التعريف الثاني تتأرجح بين اليمين و الشمال ، و في الثالث تصعد إحدى الكفتين على حساب الأخرى.

1 - الجاحظ ، البيان و التبیین ، ج3 ، تح: عبد السلام هارون ، ط7 ، مكتبة الخانجي للطباعة و النشر ، و التوزيع ، القاهرة ، 1998 ، ص 05.

2 - عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ط4 ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، 1986 ، ص 48.

3 - المرجع نفسه ، ص 49

4 - يراجع: محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن 3 هـ ، ط1 ، مكتبة النهضة ، مصر ، 1961 ، ص 229.

5 - عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص 49.

4- كما أن هناك من يرى الشعوبية على أنهم قوم متعصبون على العرب ، و لا يرون لهم فضلا على غيرهم من الأمم ، إن لم يكونوا أقل منهم شأنًا و منزلة ، و كانت غالبيتهم العظمى من الأعاجم ، خاصة الفرس ، الذين عز عليهم زوال ملكهم ، كما عز عليهم ما رأوه من العرب أيام بني أمية من كبرياء ، فتحركت في نفوسهم هذه النزعة العدائية التي ترمي إلى تصغير شأن العرب ، هذه النزعة هي التي عرفت فيما بعد بالشعوبية ، كما عرف أصحابها أيضا باسم الشعوبيين ، و هذه اللفظة – كما أسلفنا – مأخوذة من الشعوب جمع شعب ، و هو الجيل من الناس ، و قد سموا بذلك لقولهم: إن جميع الشعوب سواء ، لا فرق بين شعب و شعب ، و قيل لانتصارهم للشعوب الأعجمية التي هي مغايرة للقبائل العربية ، كما ذهب بعضهم إلى أن مصطلح الشعوبية مأخوذ من قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا "1. بطون العجم ، و بالقبائل بطون العرب ، و لا شك أن هذا تفسير شعوبي أريد به تفضيل العجم على العرب بتقديم شعوبهم في الآية الكريمة.

5- و نجد مفهوما آخر للشعوبية له المعنى نفسه مع من سبقه ، مفاده أن الأعاجم حاولوا أن ينفوا صبغة الأمة عن العرب ، فزعموا أن العرب قبائل متفرقة متنازعة ، و فسروا الآية السابقة بأن العجم هم الشعوب و القبائل هم العرب ، و المقدم أفضل من المؤخر².

فإذا أجرينا حصة مقارنة أيضا بين التعريف الثالث و الرابع و الخامس ، فنلاحظ أنه لا يوجد فرق بينهم ، فكل واحد من هؤلاء يكمل الآخر ، و يحمل المعنى ذاته في السياق نفسه ، فيفهم من ذلك أن الشعوبية هي تلك الطائفة التي تصغر من شأن العربي ، و تزدرى به إلى شر المواقف ، غير أن الرّد الجميل الذي نقابل به كلام الشعوبية من خلال تفسيرها للآية الكريمة بذلك المعنى يكون من خلال قولنا أن تفسيرهم غلط و خطأ ، ذلك أن تقديم الذّكر لا يوجب تقديم الفضل.

و الملاحظ أن هذه التعريفات تتضارب فيما بينها حول المفهوم الصحيح للفظ الشعوبية ، و إن اجتهدنا في دراستنا نجد أن غالبيتها تجمل و تجمع على إسقاط لفظ الشعوبية على أولئك الذين يحطون من شأن العرب ، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: متى أصبحت الشعوبية علما على أعداء العرب ؟. و عن ذلك يرجح الأستاذ "أحمد أمين" : " أن أول استعمال هذا اللفظ كان في العصر العباسي الأول ، و دليله على ذلك هذه النزعة كانت خفية أيام بني أمية"³.

يتضح من هذا القول أن الشعوبية كانت عبارة عن حركة سرية في بداياتها ، غير أن ذلك لم يدم طويلا و يأتي العصر العباسي الأول و يجهر عنها.

و يضيف "أحمد أمين" قائلا : " أننا لم نجد أحد أطلق هذا الاسم على أصحابها في العصر الأموي ، فأقدم الكتب التي تناولت هذا اللفظ هو كتاب البيان و التبيين للجاحظ"⁴.

فأحمد أمين ينفي وجود هذا المصطلح في العصر الأموي ، إذ لم يصادفه هذا اللفظ إلا في كتاب الجاحظ ، و هذا دليل قاطع على سرية الحركة ، و لم يتوقف أحمد أمين عند هذا الحد ، و إنما يذهب إلى القول عنها بأنها " نزعة أكثر منها عقيدة"⁵.

يتبين من ذلك أن الشعوبية هي نزعة ، و الشعوبية له مذهب فكري يتّخذة لنفسه ، و يطلق العنان لها لتفسير وفق هواها.

مراحل الشعوبية:

مرّت الشعوبية بعدة مراحل ، حيث ظهرت في العصر الجاهلي متمثلة في الخصومات السياسية بين القبائل و الممالك ، و تجدر الإشارة أن الحركة الشعوبية بدأ نشاطها الفعلي في الفترة الأموية الأخيرة ، و اندفعت بقوة في العصر العباسي ، و هي تمثل جانبا من محاولات شعوب غير عربية لضرب السلطان العربي ، عن طريق الفكر و العقيدة⁶.

1 - سورة الحجرات ، الآية 13.

2 - يراجع: جرس داود داود ، الزندقة و الزنادقة في الأدب العربي من الجاهلية حتى ق 03 هـ ، ط1 ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، 2004 ، ص 351.

3 - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج1 ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 2005 ، ص 47.

4 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

5 - المرجع نفسه ، ص 48.

6 - يراجع: عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص 09.

يتبين من ذلك أن ظاهرة الشعوبية هي نتاج امتزاج حضارتين ، بدأت في العصر الأموي و
واصلت مشوارها في العصر العباسي ، و ظهورها في العصر الأموي ، كان نتيجة تمييز الأمويين بين
العرب و الموالي في كل شيء ، مع أن الرسول عليه أفضل الصلاة و أزكى التسليم نهى عن ذلك في
أقواله و أعماله ، فمن أقواله نجد له نصا واضحا و صريحا يقول فيه : " سلمان منا آل البيت " ، و كذا
قوله : " لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى " ¹.

فالرسول - صلى الله عليه و سلم - نبذ هذه الظاهرة ، و لم يجعل مقياسا للتفاضل إلا بالتقوى ،
فهو لم يدخل أية صفات فزيولوجية كاللون و الطول و البدانة و غيرها ، التي من شأن الفرد الجاهل أن
يتلذذ بها و يستعلي بها على أخيه ، فبلال بن رباح "العبد الحبشي" رغم سواد لونه ، إلا أن النفوس
ارتبطت به و سما بروحه إلى الخالق عز و جل بأطيب أعماله و اختاره النبي - صلى الله عليه و سلم
- مؤدنا له ، فالرسول - صلى الله عليه و سلم - حسم أمر التفاضل بالتقوى و العمل الصالح ، لكن ما من
نفس شبت إلا نسيت خالقها ، فبعد اتساع الفتوح أيام الأمويين ، و تدفق الأموال على خزائن دولتهم ،
شعر العربي بعلاوة نفسه ، فازدهى الأموي بمجديه ، و شعر أنه الأولى و الأجدر ، فغدا يميز بين مسلم
عربي و غير عربي ².

و قد وجدت هذه الظاهرة في العصر العباسي ، حيث نشطت فيه و مارست نفوذها في وسطه ،
كون العباسيين اعتمدوا في قيام دولتهم و بصفة خاصة على الفرس ، و باعتبار الدولة الفارسية ذات مكانة
و منزلة راقية تتربع على عرش الثقافات ، فأحست بنوع من الرفعة و راودها هي الأخرى ذلك
الشعور بالتفوق و الإمتياز ، الذي كان يشعر به العباسيون أيضا ، مدعاة منهم بحق الخلافة ، و بعد
توكيلهم أمر سلطة الحكم للفرس ، نما الفارسيون على شعور الأجدر و الأحق ، و راح هو الآخر يفرق و
يميز بينه و بين العربي.

و فصل نشاط الشعوبية عبر العصور فيما يلي:

1- العصر الجاهلي:

حيث ما يلقانا في هذا المجال ما كان من:

أ- الشعر السياسي:

فقد كان يدور حول التباهي و الإفتخار بالقبيلة و الإعتزاز بمكانتها ، حيث تعددت موضوعات
افتخار الشاعر الجاهلي بقبيلته ، فكان منها ما هو متصل بالسيادة و المجد ، و الجود و الكرم ، و
شرف النسب ، و من أولئك المولعين بالتغني بقبيلتهم "حسان بن ثابت" إذ يقول:

و لقد تُقَلدنا العشيَ أمرَها
و نسودُ يومَ النَّائبِ و نَعْتَلِي
و تَرورُ أبوابَ المُلوكِ رُكائبًا
و متى نَحْكَمُ في البرِّيَّةِ نعدلُ ³.

حيث نجد الشاعر يفتخر بسيادة قبيلته و مجدها ، و علو شأنها أمام غيرها من القبائل. و ظلّت
الخصومات السياسية على أشدها بين القبائل البدوية القديمة على اختلاف أسبابها ، فمنها:

• **المادي:** المتمثل في الطمع من أجل الحصول ، أو الإكتساب (إبل ، غنم) ، أو الطمع في الوصول
إلى الرياسة.

• **الأدبي:** الذي تجسد في الشعر و النثر الدائر حول هذه الموضوعات المادية.

فالخصومات السياسية كثيرة و بلغت أوجها بين الجاهليين ، و الشعر الجاهلي كان يمثل صراعا دائما بين
القبائل ، إذ نجد "الأعشى" يتغنى بيوم "ذي قار" ، الذي يعتبر من أشهر أيام العرب ، فقد دارت حوادثه
بينهم و بين الفرس ، و كانت الغلبة فيه للعرب ، فيقول:

أما تميمٌ فقد ذاقت عداوتنا و قيسَ عيلانَ مسَّ الخزي و الأسف
لو أنّ كلَّ معدٍ كان شاركنَا
في يومِ ذي قارَ ما أخطاهم الشرفُ ⁴.
و نجد أيضا الشاعر "العديل العجلي" يتغنى بدوره هو الآخر بهذا اليوم في قوله:

1 - خليل شرف الدين ، أبو نواس ، الموسوعة الأدبية المسيرة ، ج1 ، دط ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، 2004 ، ص 168.

2 - يراجع: المرجع نفسه ، ص 169.

3 - ديوان حسان بن ثابت ، عبد أمهنا ، ط4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2004 ، ص 185.

4 - ديوان الأعشى الكبير ، مهدي محمد ناصر الدين ، ط3 ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2003 ، ص 114.

و ما يعدُّون من يوم سمعتُ به
من خلال تصفح أبيات الأعشى و العجلي ، نجد أن نزعة الأعشى تطول العرب فيما بينهم
لنتعدّها إلى العجم ، منوّهة بشرف النَّصر و معاتبة من لم يشارك فيها ، أما العجلي فنجد في بيته فخر
سياسي كبير ، خاصّة حينما وظف الشاعر صيغة: أفعل التفضيل (أفضل) في يوم ذي قار.

ب- الشعر القبلي:

لقد تواصلت الخصومات السياسية في كنف القبائل العربية و اشتدت روح العداوة و التنافس
بينهم حول أمور عدة شملت الرياسة و التعدي على الجار و غيرها ، و قد كانت هذه الخصومات كثيرة
الإتصال بالأدب شعره و نثره ، و أشهر العصبية القبلية القائمة بينهم هي حرب "البسوس" ، إذن فقد
كان التقارب بين العرب مبني على التآكل ، و التنافر فيما بينهم ، و هذا ما يفسّر بأنّ الخصومات
السياسية كانت على أشدها في الجاهلية².

2- عصر صدر الإسلام:

لقد شهد هذا العصر - هو الآخر - حروبا و غزوات سنّها الرسول - صلى الله عليه و سلم - في
وجه من تصدى للإسلام و حاربه ، و كان للأدب دور فعّال في التعبير عن هذه الغزوات ، و وصف
معاركها شعرا و نثرا ، و من الذين جرّدوا ألسنتهم و أقلامهم للنهوض بالدعوة المحمدية و مناصرتها نجد
"حسان بن ثابت" الذي أوغل في ذلك من خلال قوله في بعض المهاجرين:

أمسى الخلابيبُ قد عزّوا و قد كثروا و ابن الفريعة أمسى بيضة البأد

أما قريشُ فإنني لست تاركهم حتى ينيبوا من الغيَابِ بالرّشدِ

و يتركوا اللّات و العزى بمعزلة و يسجدوا كلّهم للواحد الصّمَدِ³.

فيقول الرسول - صلى الله عليه و سلم - : " يا حسان نفست عليّ إسلام قومي "4، كون حسان بدأ
قوله بالفخر و اللمز على المهاجرين الوافدين على يثرب ، و ربما فعل ذلك لتضايقهم من كثرتهم.

و اتّخذ الشعر في هذا العصر أشكالا عدة من فخر و هجاء و وعد و وعيد ، يلمّ به من جهة كل
من المسلمين و الكفار ، فكل منهم يفتخر بنفسه و يهجو غيره ، و في هذا يقول "علي بن أبي طالب" يوم
بدر:

ألم تر أن الله أبلى رسوله بلاءً عزيزٍ ذي اقتدارٍ و ذي فضلٍ

بما أنزل الكفّارَ دارَ مذلّةٍ فلا قوا هواناً من إسرارٍ و من قتلٍ⁵.

و رد عليه "الحارث بن هشام بن المغيرة" بقوله:

عجبت لأقوامٍ تغنى سفيهم بأمر سفاهٍ ذي اعتراضٍ و ذي بطلٍ

تغنى بقتلى يوم بدرٍ تتابعوا كرام المساعي من غلامٍ و من كهلٍ

على أنني و اللّات يا قوم فاعلموا بكم واثقٌ أن لا تقيموا على تبلي⁶.

ما نلاحظه من قول علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أن فخره كان اعتزازا بالإسلام و
المسلمين من جهة ، كما أن هجاءه كان لاذعا على الكفار من جهة أخرى ، أما قول "الحارث بن المغيرة"
، فهجاؤه انصب سخطا على المسلمين و افتخاره اقتصر على قتلاه ، حيث أقسم باللّات على الثأر لهم.

و بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه و سلم - برزت مسألة سياسية خطيرة تمثلت في مسألة
الخلافة بين المهاجرين و الأنصار حول أحقية كل واحد منهم بها ، و كل منهم اعتمد على حجة بليغة في
ذلك ، و بعد تولي "أبي بكر" الخلافة احتج الأنصار على ذلك و لم يسكتوا ، فبدت العصبية الجاهلية
واضحة حتى كادت أن تبعث حربا من جديد⁷.

و بعد تولي "عمر بن الخطاب" الخلافة ، و مقتله الذي يعتبر أول مظهر عملي من مظاهر
الشعبوية ، بحيث عزّ على هؤلاء المؤتمرين أن يروا مقوض العروش ينعم بهذا السلطان من دونهم ،

1 - جرس داود داود ، الزندقة و الزنادقة ، ص 336 ، نقلا عن العقد الفريد ، ج5.

2 - يراجع: جرس داود داود ، الزندقة و الزنادقة ، ص 337.

3 - ديوان حسان بن ثابت ، عبد أمهنا ، ص 79.

4 - جرس داود داود ، الزندقة و الزنادقة ، ص 338.

5 - المرجع نفسه ، ص 330 ، نقلا عن أبي هشام ، السيرة النبوية ، ج3.

6 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها ، نقلا عن المصدر نفسه.

7 - يراجع: الزندقة و الزنادقة ، ص 340.

فطعنه "أبو لؤلؤة" طعنة هادفة فكانت أول طعنة شعبية¹ ، و كان هذا هو موقف الموالي من العرب ، و من هذا الخليفة الورع الفاروق ، ما كان أحدا ينتظر منهم هذا ، و هو الذي غمرهم بالعتاء الجزيل المنصف.

و إذا ما وصلنا إلى خلافة "عثمان بن عفان" و رأينا مقتله حتى ازدادت نيران العصبية و الخصومات السياسية.

ما نلاحظه أن نيران الخصومة في هذا العصر خمدت قليلا ، و نجد أن الأدب لعب دورا فعّالا في تسجيل أحداث الحروب و الوقائع التي دارت رحاها بين صفوف الكفار و المسلمين من جهة ، و بين المهاجرين و الأنصار من جهة أخرى.

3- عصر بني أمية:

و ما إن جاء عصر علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - و ما نشب في عهده من حرب "صفين" ، حتى نرى الصراعات القبلية علت من جديد ، حيث أن العرب انقسمت في أعقاب هذه الحرب إلى ثلاثة أحزاب: الشيعة ، الخوارج ، الأمويين ، فاشتدت الخصومات السياسية بينهم ، حيث أخذ كل حزب يجلب الدلو لصفه بشئى الطرق ، و تراوح الخلاف بين أمرين ، إما الإنتصار للرأي و إما الإتصال بالمصالح المادية و العصبية القبلية ، و عدّ الشعر متنفسا مريحا لعرض كل هذا و تسجيل تلك الخصومات ، إذ ظهرت نزعة سياسية عنيفة تمثلت في دخول الأعاجم في الإسلام ، غير أنهم تنكروا لهذه السياسة الأموية السائدة ، فكرهوا العرب بسببها ، و راحوا يفخرون و يمجدون دولتهم و تمنوا لو عاشوا في ظل هؤلاء الأكاسرة بدل هؤلاء الملوك² ، و من أوائل من أعلن شعوبيته ، نجد "إسماعيل بن يسار النسائي" في الفترة الأموية الأخيرة ، و تنكشف شعوبيته حين ينظم مفتخرا بالفرس يقول:

رُبَّ خَالٍ مُتَوَجِّحٍ لِي وَ عَمِّ مَاجِدٍ مُجْتَدِي كَرِيمِ النَّصَابِ
إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفَرَسِ مُضَاهَاةً رَفَعَةَ الْأَنْسَابِ
إِذْ نَرَبِّي بِنَاتِنَا وَ تَدَسُّونَ سِفَاهًا بِنَاتِكُمْ فِي الثَّرَابِ³.

فالشاعر يفخر بأصله الفارسي ، و يمجّد نسبه على نسب العرب ، و يعدّد ميزات أصله على أصلهم ، و يظهر خصوصا في البيت الثالث ، ثم أعلن بصريح العبارة عن نزعة الشعوبية في قصيدة أشدها أمام "هشام بن عبد الملك" يفخر بها بالعجم يقول:

من مثل كسرى و سابور الجنود معًا و الهرمُزات لفخر أو لتعظيم
أسدُ الكَتائبِ يومَ الرَّوعِ أن زحفوا و هم أذلُّوا ملوكَ التُّركِ و الرُّومِ⁴.
و يسير على منواله "يزيد بن ضبة" مولى ثقيف ، حين يفخر بعشيرته و يعتبر على هشام بن عبد الملك ، و يذكر بأمجاد قومه فيقول:

أَلَا مِنْ مَلْبُغٍ عَنِّي هِشَامًا فَمَا مِنَّا الْبَلَاءُ وَ مَا بَعْدُنَا
أَلَمْ يَكُ بِالْبَلَاءِ لَنَا جِزَاءٌ فَتَجَزَى بِالْمَحَاسِنِ أَمْ حُسْدَنَا⁵.

و هكذا فإن الخصومات السياسية القائمة على جذور العصبية القبلية من جهة ، و الجنسية و الدينية من جهة أخرى ، و يمكن اعتبارها إحدى مقومات الحياة الإجتماعية في ذلك الوقت ، إذ العصبية القبلية و الخصومات السياسية اضطرت نيرانها من جديد و ازدادت حدتها في هذا العصر.

4- العصر العباسي:

نجد الشعوبية في هذا العصر ما هي إلا امتدادا للعصر الأموي ، خاصة في عهد علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ، فقد اشتدت جذوة العصبية القبلية و علت صيحاتها في عصر بني أمية ، كون أوغلت معاملة الأمويين للموالي إيغالا مال إلى القسوة ، مما دفع بالموالي للوقوف إلى جانب الخوارج في الثورة على الأمويين ، كما التفقت منهم جماعات عدة حول أبي مسلم الخرساني - داعية العباسيين بخرسان - حيث كوّنوا جيشا ضخما أغاروا به على الأمويين ، و كانت الإغارة لتحقيق هدفين:

• أولها: الثأر للعباسيين من الأمويين.

1 - يراجع: محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى ق 3هـ ، ص 124.

2 - يراجع: الزنادقة و الزنادقة ، ص 342.

3 - المرجع نفسه ، ص 343 ، نقلا عن الأغاني ، ج 4.

4 - نقلا عن عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص 25.

5 - جرس داود داود ، الزنادقة و الزنادقة ، ص 343 ، نقلا عن الأغاني ، ج 4.

• ثانيها: الثأر للفرس من العرب.

و انتهى المطاف بهذا الزحف للوصول إلى مناصب الدولة العباسية العليا في عهد "الرشيد" و "المأمون" ، و من هنا برزت نزعة الشعوبية ، و تعددت طوائف الشعوبية ، و منها السياسيون و منهم القوميون ، و منهم مجّان و خلعاء¹.

و قد نادت الدولة العباسية في بدايتها بالتسوية بين العرب و الموالي ، إلا أنّ سرعان ما تغيرت النظرة بدخول الفرس إلى الحكم ، فقد تشكل صراعا حادا بينها و بين العرب ، و قد كان من برامج الدولة العباسية المتحكمة للثورات برامج سياسية تمثلت في دعوتها إلى إزالة السلطان العربي و إحياء مجد الفرس ، و برامج اقتصادية متمثلة في دعوتها لأوضاع أفضل².

و بقيت جذور الشعوبية الفارسية مشتتة حتى العصر العباسي الثاني ، و ذلك يعود لانضمام البرامكة و بنو سهل ، بالإضافة إلى السريانيين ، و الهنود و الأتراك إلى فئة من يشيدون بفضائل الأمم الأجنبية ، مفاخرين على العرب من خلال كتب تجمع مثالب العرب ، و عن طريق شعراء شعوبيين متناسين بذلك تعاليم الدين الإسلامي ، و ما دعا إليه من اتحاد و مساواة و عدل³.

و بذل الكتاب و الأدباء من الشعوبيين كلّ قواهم و مجهوداتهم من أجل بعث الثقافة الفارسية ، محاولين بثّ الطابع الفارسي في الإدارة العباسية ، هذا مع تقليل شأن الثقافة العربية الإسلامية و الإستهانة بها ، قال "ابن قتيبة": "و أعادنا الله من فتنة العصبية ، و حمية الجاهلية ، و تحامل الشعوبية ، فإنها بفرد الحسد ، و نغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة و تلحق بها كل رذيلة ، و تغلو في القول ، و تسري في الدم ، و تبهت بالكذب و تكابر بالعصيان"⁴.

يتضح من قول ابن قتيبة ، و هو المتعوز مما تثيره العصبية التي تلحق الأمم فيما بينها ، و ما تسببه من فتن و خصومات و تآكلات و ثورات أكثر ما تكون جاهلية ، و الشقّ الحاد الذي أحدثته الشعوبية بين العرب و غيرهم النّاجم عن الحسد و الغلّ و البغض ، و هذا ما دفعها إلى الحط من شأن العرب ، و النسب إليها كل ما هو سيء بمبالغة و إسراف ، متبعة بذلك شتى الوسائل.

و نلاحظ أن ابن قتيبة أول ما بدأ ، بدأ بالتعوذ من هذه الظواهر المتغترسة ، حيث عدّها في منزلة الشيطان ، فالشيطان همّة الوحيد و هدفه الأكبر التفرقة بين الجماعات ، و الشعوبية كان عملها كذلك حيث مالت إلى التفرقة بين العرب و العجم ، و من ثم فلفظ التعوذ الذي استعمله كان في محله ، و انطبق فعلا على عمل الشعوبية ، فيمكن باختصار اعتبار الشعوبية و الشيطان في كفة واحدة ، و الترابط و الإتحاد في كفة ثانية و بلغة الرياضيات الشعوبية و الشيطان = (تساوي) التفرقة و (لا تساوي) الإتحاد ، و بلغة البلاغة فهما ضدّين مع الإتحاد.

و هذه الخصومات السياسية توزعت في مضارب العرب لتظهر جلية في أدبهم ، حيث ظهرت الخصومات الأدبية واضحة بين رجال الفكر ، و أكثر ما تجلت في المناظرات و المساجلات التي كانت تدور بين اثنين أحدهم عربي ، و الآخر فارسي حول موضوع ما ، و كل منهما يعلي الكفة لصفه ، كما برزت في الشّعر توجّهات شعوبية أهم من مثلها "علان الشعوبية" و هو بدوره يفضل العجم على العرب ، و يفتخر بكسرويته إذ يقول:

إنّ لي فخراً بماءنّه
و رجال شربهم غدق
كسرويات أبوتنا
في قرار النّجم مأهول
هم لما حازوا مباديل
عُرر زهر مقاويل⁵.

و هذا "ابن المقفع" أيضا يقول و هو حاقّد على العرب: "أي حكمة تكون أبلغ أو أحسن أو أغرب في غلام بدوي ، لم يشبع من طعام ، يستوحش من الكلام ، و يفزع من البشر ، و يأوي إلى الفقر و

1 - يراجع: الزندقة و الزنادقة ، ص 110.

2 - يراجع: الجذور التاريخية للشعوبية ، ص 34.

3 - يراجع: أمين أبو الليل ، العصر العباسي الثاني ، ط1 ، مؤسسة الوراق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، 2007 ، ص 46.

4 - عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص 51.

5 - نقلا عن داود داود ، الزندقة و الزنادقة ، ص 350.

اليرابيع و الظباء ، و قد خالط الغيلان ، و أنس بالجان ، فإذا قال شعرا ... يقول ما يكتب عنه ، و يروي له ، و يبقى عليه "1.

يتضح من هذا القول أن ابن المقفع يعاير العرب و يقلل من شأنهم ، ناسبا إليهم جملة من الصفات أشبه ما تكون بالحياة العقيمة ، " و كان "سهل بن هارون" شعوبي المذهب ، شديد العصبية على العرب و له في ذلك كتب كثيرة "2.

هكذا إذن كانت الخصومة السياسية على أوج غايتها في هذا العصر ، و بلغت ذروتها بين العرب و أبناء عموماتهم من جهة ، و بين العرب و الموالي من جهة أخرى ، و هذا طبيعي في وسط عج فيه النفوذ الفارسي ، و قد كان نقل العاصمة إلى بغداد تأييدا لهذا النفوذ الواسع الذي نادى أولا بالمساواة بين الجميع ، لا فرق بين مولى و عربي ، ليفجر مبتغاه الحقيقي بعد ذلك جاهرا بتقدم الفرس على العرب ، و هذه هي النزعة الشعوبية التي شغلت فضاء أوسع في دولة بني العباس ، و كان ذلك كرد فعل للعصبية العربية في أيام بني أمية³.

و ما يمكن ملاحظته هو كيف كانت الشعوبية زمن الجاهليين ، و كيف أتت خبت إبان ظهور الإسلام و الخلفاء الراشدين ، و كيف عادت لتظهر من جديد في العصر الأموي و تشتد و تتطور إلى عصبية جنسية في أواخر هذا العصر ، و تبلغ ذروتها أيام العباسيين⁴.

أشكال الشعوبية:

نجد أن الشعوبية ظهرت في عدة أشكال ، تمثلت في ثلاث نزعات متضاربة و متناقضة فيما بينها ، منها من تعلي من شأن العرب ، و منها من تحط من شأن هذا الأخير و تعلي من قيمة العجم ، و ما بين هذا و ذاك ظهرت نزعة أخرى تحمل روح الموازنة و المساواة بين النزعتين ، و السؤال الذي يطرح نفسه: أي النزعات أحق أن يطلق عليها لفظ الشعوبية؟

1- النزعة الأولى:

و هي التي تعلي من شأن العرب ، و تفضلهم على غيرهم ، و كان ذلك في عهد الأمويين ، فهم قد جعلوا من العنصر العربي أداة للإفتخار و التمييز ، و جعلوا فيه نظرة يتطلع إليها غيره ، محتسبين ماله من مميزات يستحق بها أن يكون أهلا للتمييز أو بالأحرى أن يكون قائدا للشعوب الأخرى ، فزهى العربي بمجديه ، قديمه و حديثه ، فالنبي - صلى الله عليه - و سلم - منهم و هم مناصروه و مهاجرون معه ، و فاتحي الأمصار ، و نشر الرسالة قامت على أكتافهم ، إضافة إلى ما عنوا به من مجد جديد يسمو بمكانتهم الإقتصادية متمثلا في تدفق الأموال إلى خزائن دولتهم⁵.

لقد زهى العربي قبل الإسلام و ظهوره زادهم زهوا و فخرا ، فأخذوا يتباهون به معددين ما كان فيه ، فبلادهم مهبط الوحي و مركز الدين الجديد الذي خصهم به الله تعالى من دون عباده ، كانت للعرب مفخرة كبيرة به ، إضافة إلى كونهم فعلوا الكثير من حيث أنهم نفخوا زخرف قيصر فطار ، أشاروا إلى الصنم فسجد و خلّى جبروته إلى الأبد ، و هزموا الروم في بحر الروم ، كل هذا بعث في أنفسهم الثقة و العزة ، فاستطالوا على الموالي و أخذوا ينظرون إليهم نظرة الغالب للمغلوب ، فضلا عن رؤيتهم فيما وضع من أحاديث على الرسول - صلى الله عليه و سلم - دليلا على أنهم خير الأمم ، كتقولهم عليه - عليه السلام - : " حب العرب إيمان و بغضهم نفاق "6 و كذلك تقولهم عنه - عليه السلام - : " من أحب العرب فقد أحبني ، و من غشى العرب لم يدخل في شفاعتي ، و لم تنله مودتي "7 ، و كذلك ما روي أنه قال : " إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، و جعلهم فرقتين ، فجعلني في خير فرقة ، و خلق القبائل

1 - المرجع نفسه ، ص 351.

2 - عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص 56.

3 - يراجع: محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ، ص 225.

4 - يراجع: جرس داود داود ، الزندقة و الزنادقة ، ص 348.

5 - يراجع خليل شرف الدين ، أبو نواس ، ص 169.

6 - يراجع: محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية ق 3هـ ، ص 126 - 127.

7 - محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ، ص 127.

فجعلني في خير قبيلة¹ ، و غير ذلك من الأحاديث الموضوعية التي جبروا بها كسرهم و اتخذوها ذريعة للتسامي على الموالي و الحط من شأن أولئك.

و هكذا عاش العرب في العصر الأموي شامخي الأنوف ، معتزّي الأنفس ، مرفوعي الرؤوس ، لم تكن نظرتهم إلا لأنفسهم استعلاء على غيرهم ، ففضلهم يروه أعلى من فضل غيرهم ، و شرفهم أسمى منهم.

* أفلا يستحقون العزة ، و قد جاءهم الله تعالى بخير نبي.

* أفلا تكون لهم المكانة الرفيعة ، و قد جاءهم محمد -صلى الله عليه و سلم- بخير كتاب.

* أفلا يكون لهم الفخر و قد جاءهم القرآن الكريم بنعيم الدنيا و الآخرة.

بلى ، و الله كان لهم ذلك و امتثلوا به ، و ذلك أكسبهم شعور الغرور و أعطاهم نشوة الزهو ، فبعثوا العصبية من جديد ، إذ ميزوا بين كل عربي و غير عربي ، فأرأوا العربي لا مثيل له و لا أفضل منه و لا شعبا سواه.

هكذا إذن حقق العصر الأموي للعربي مكانته و مجده على غيره ، و بلغ هذا الترفع بهم إلى الحد الذي شاعت بعض الأقوال ، توهم بأن الإسلام إسلام العربي ، و من ثم حرّموا على المولى ما لم يحرمه الله عز و جل ، إذ لم يجوّزا على المولى إمامة الصلاة في حضور عربي ، فمقياس العروبة كان أثنى عندهم ، إذ قيل أن "الحجاج" أمر ألا يؤمّ المسلمون إلا عربي ، و إن كان على ذلك ما يبرّره فهذا التبرير قائم على شيء واحد فقط يتمثل في حالة ما إذا كان المولى لا يجيد قراءة القرآن قراءة صحيحة ، فما هو إذن في حالة كون المولى على قراءة صحيحة و متقنة لكتاب الله ؟ ، فالأمر إذن أمر عرب و عروبة و عربي فقط².

و لم يتوقف شيوع الأقوال عند هذا الحد فحسب ، بل انتشرت في أوساط العامة أقوال أخرى منها: لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة حصار أو كلب أو مولى ؟.

فيفهم من ذلك أنهم جعلوا من منزلة الإنسان المولى متساوية مع منزلة الحيوان ، و دنوا به إلى أدنى مستوى ، و لم يحترموا في ذلك التمييز الفاضل الذي أحدثه الله سبحانه و تعالى بين الإنسان و الحيوان.

فهذا التعصب للعرق جعلهم ينظرون للمولى نظرة احتقار و ازدراء³ ، فقد زادهم شعور الاستعلاء و الفخر بأنفسهم إلى التنكيل بالموالي و التّقصير في المعاملة الحسنة معهم ، إذ كان الموالي إذا حاربوا مع العرب حاربوا مشاة و لا ينالهم من الفياء إلا النزر اليسير ، و لا يسمح لهم بسكن الأمصار ، بل زاد احتقار العرب للموالي إلى درجة لا توصف إذ كان لا يسمح للمولى أن يتقدمه في موكب و كان لا يناديه بكنيته ، لأن في ذلك تعظيم للمنادى ، و أعجب من ذلك كله أنه إذا عاد عربي من السوق فرأى أحد الموالي كلفه بأن يحمل عنه ما اشتراه⁴ ، كل ذلك كانت معاملة العربي للمولى نتيجة افتخاره العقيم ، فيما يفخر و يحتقر بأبّالدين الإسلامي ؟ ، فهو دين البشرية جمعاء ، أو بالرسول - صلى الله عليه و سلم - ؟ ، فهو رسول أرسله الخالق عز و جل إلى الناس كافة.

بعد ما لقيه الموالي من اضطهاد و تعسف من قبل العرب ، ظهرت نزعة ثانية تحاول الإنصاف ، و خلق جو من التوازن بين العرب و العجم مستندة بذلك إلى تعاليم الإسلام و مبادئه.

2- النزعة الثانية: و هي التي تعرف بالمساواة.

كانت الشعوبية في العصر الأموي تنحو بمبادئ الدين السمحة ، و تدعو للمساواة باسم مبادئ الإسلام ، فلا تعدد إلى تفضيل أمة على أمة ، و قد تركزت هذه النزعة بالعراق حتى أواخر العصر الأموي ، و كان التأكيد على فكرة التسوية الإسلامية ازداد قوة بين المسلمين ، و ذلك بتغلغل مبادئ الإسلام و شيوع تعاليمه⁵ ، فكانت فكرة أولئك المنادون بالتسوية أنّ التفاضل بين الأفراد ، لا بين الجماعة و الجماعة.

1 - المرجع نفسه ، ص 127.

2 - يراجع: فوزي عيسى ، فوزي أمين ، في الأدب العباسي ، ص 38 - 39.

3 - يراجع: في الأدب العباسي ، ص 39.

4 - يراجع: في الأدب العباسي ، ص 37.

5 - يراجع: الجذور التاريخية للشعبوية ، ص 24.

" أن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بأبائهم و لا بأحسابهم ، و لكنه بأفعالهم و أخلاقهم و شرف أنفسهم و بعد همهم ، ألا ترى أنه من كان دنيء الهمة ، ساقط المروءة ، لم يشرف و إن كان من بني هاشم في ذؤابتها ... و من قيس في أشرف بطن منها ، إن الكريم من كرمت أفعاله ، و الشريف من شرفت همته "1.

فالفرد ما كان ليعلو بأبيه و جده ، و هو ذميم السمعة ، و إنما ما يجعل الفرد يفتخر بنفسه ، و ينظر الناس إليه باعتزاز هو ما يكتنزه من بعد أخلاقي ، و غنى نفسي ، فما اعتز العبد بنفسه و ما افتخر به غيره و هو على حال ذميم ، حتى و لو كان من عليّ القوم ، فكرم الأفعال و شرف الهمة عنصران يعلو بهما الفرد ، و يسقط و يحتقر من دونهما.

و نجد في ذلك أقوال بليغة للرسول - صلى الله عليه و سلم - تؤكد هذا المعنى من حيث قوله : " إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه "2 ، و قوله أيضا - عليه الصلاة و السلام - في "قيس بن عاصم" : " هذا سيد أهل الوبر "3.

فالكرم إذن صفة قياسية للهمة و علوها ، و من ذلك نجد أيضا قول "عائشة أم المؤمنين" - رضي الله عنها - : " كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به ، و كل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به "4 ، فمعنى قولها أن أولى الأشياء بالإنسان طبائع نفسه و خصالها ، فلا يضره لؤم من سبقه أو من لؤم عشيرته الأوائل و هو كريم ، فخلقه لصيق بطبعه و لا يغيره له أحد مادام على وجه واحد ، أما إذا كان لئيمًا فلا ينفعه كرم قومه الأسبقين ، مادام هو على وجه لئيم ، فلؤمه كائن بطبعه.

قال الشاعر :

ماليّ عقلي و همّتي حسبي ما أنا مولى و لا أنا عربّي
إن انتمى منتمٍ إلى أحد فأئنّي منتمٍ إلى أدبي

فالشاعر يستصرخ عقله و همّته و أدبه في هذه الأبيات ، فربط المال بالعقل ، و الهمة بالحسب ، و الإنتماء بالأدب ، و قد أحسن الشاعر في الربط ، و أحسن اختيار الكلمات لمدلولاتها ، فالعقل تاج المال ، و الحسب أصل الهمة و الأدب شعاع النسب ، فالشاعر ينفي انتماءه لغير أدبه ، و في هذا الشأن نجد قول الرسول - صلى الله عليه و سلم - يواكب المعنى ذاته : " حسب الرجل ماله ، و كرمه دينه "5 ، و تأييدا لقول الرسول - صلى الله عليه و سلم - نجد كلام "عمر بن الخطاب" - رضي الله عنه - من حيث قوله : " إن كان لك مال فلك حسب ، و إن كان لك دين فلك كرم "6.

فبالنظر لمعطيات الحياة الإجتماعية العامة ، فالفرد ينظر إلى أخيه إن كان ثريا يقال عنه رجل ذو حسب ، و إن كان متدينا يقال عنه رجل كريم ، فالثري يحمي اسم عائلته من عار السمعة السيئة ، و هذا ما يوافق كلامه عليه الصلاة و السلام : " كاد الفقر أن يكون كفرا " ، و هذا ما لا ينطبق على صاحب المال ، و الكرم صفة لصيقة بالإنسان المتدين ، و قد كانت هذه النزعة ممتثلة لأمر الدين ، خاصة فيما جاء في قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ "7.

فالآية وضحت و جعلت مقياس التفاضل هو التقوى ، فلم تدع إلى تمييز أو تفريق.

كما احتجت هذه الطائفة المنادية بالتسوية بجملة من الأحاديث النبوية كقوله صلى الله عليه و سلم في خطبة "حجة الوداع" ، و هي الخطبة التي ودّع فيها أمته و ختم نبوته : " أيها الناس ، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية و فخرها بالأبواء ، كأكم لأدم و آدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا

1 - ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، ج3 ، تح: محمد عبد القادر شاهين ، دط ، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2007 ، ص 335.

2 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3 - العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ج3 ، ص 335.

4 - العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ج3 ، ص 335.

5 - المصدر نفسه ، ص 336.

6 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

7 - سورة الحجرات ، الآية 13.

بالتقوى¹ ، فلا عربي أفضل من عجمي لأنه عربي ، و لا أعجمي أفضل من عربي لأنه أعجمي ، فلا العروبة و لا الأعجمية في الإسلام ميزة تعلي من شأن صاحبها ، فالناس جميعا سواسية ، خلقوا من طين و تراب و يعودون إلى التراب ، و قوله أيضا - عليه الصلاة و السلام - : " المؤمنون إخوة ، تتكافأ دماؤهم و يسعى بذمتهم أدناهم و هم يد على من سواهم"².

و في ذلك يقول "المأمون" ابن مراحل الأعجمية : " الشرف نسب فشریف العرب أولى بشریف العجم من وضع العجم بشریفهم ، و شریف العجم أولى بشریف العرب من وضع العرب بشریفهم"³. و من ذلك يتضح أن الناس سواسية ، و لا تفاضل بينهم إلا بالشرف و التقوى ، و يتبين من هذا القول أن الإنسان الشریف من العرب من الأحسن أن يكون له شریف من العجم من وضع العرب ، و شریف العجم أفضل أن يكون له شریف العرب خير له من وضع العجم ، و معنى ذلك أنه لا دخل لمعيار العربية و العجمية أو بمعنى آخر أن التعامل يقتصر على الشرف و التقوى ، بغض النظر عن الموقع.

هكذا إذن كانت مناداة أهل التسوية و حجتهم في ذلك أنه ما من أمة إلا و فيها الصالح و الطالح ، و الطيب و غير الطيب ، و لها من المحاسن كما عليها من المساوي ، و خير ميزان توزن به الأعمال هو الدين و التقوى و الخلق و الشرف ، فمن كان متدينا بلا شك أنه تقي ، و من كان متخلفا فهو بطبعه شريف ، فالعملية مقتصرة إذن على الشرف و التقوى.

و قد مال الشعراء للتعبير عن التسوية بين العرب و الموالي نجد "الخريمي" ، حيث يقول:

فإن تفخري يا جُمْل أو تتجَملي فلا فخر إلا فوقه الدين و العقل

أرى الناسَ شرعاً في الحياة و لا يرى لقبر على قبر علاء و لا فضل

و ما ضرني إن لم تلدني يُحابر و لم تشتمل جُرم عليّ و لا عُكَل⁴.

فالشاعر في هذه الأبيات يرى الناس سواسية و لا تفاضل بينهم إلا بالدين و العقل ، و كأنه يقف من الفرس مدافعا و لا يقف من العرب مهاجما.

نظم العباسيون الدعوة للموالي في خراسان ، و انظموا إليها أفرادا و جماعات للقضاء على الدولة الأموية ، و التحرر من ربقتها ، و معاملتها السيئة لهم ، فقامت بذلك ثورة عباسية أعجمية ، لم تكن ثورة على العروبة في حد ذاتها ، و إنما كانت ثورة من أجل تطبيق نظرية الإسلام في المساواة بين العرب و الموالي ، غير أن الظروف أدت إلى أن يكون الفرس في جانب و العرب في جانب آخر⁵ ، و علت بذلك كفة الفرس على العرب ، فظهرت نزعة ثالثة للشعبوية.

3- النزعة الثالثة:

و هي التي تميل إلى الحط من شأن العرب ، فهؤلاء تصدق عليهم لفظة الشعبوية لأنهم لم يرضوا بالتسوية ، و إنما افتخروا على العرب و ازدروا بهم و قللوا من شأنهم ، و حطوا من قدرهم إلى أسفل الدرجات⁶ ، و كان ذلك حاصل في ظل الخلافة الجديدة ، و إن كانت الدولة العباسية تحرص على إقامة شيء من التوازن الاجتماعي يلمّ العرب بغيرهم ، فالخليفة كما يقول "أحمد أمين" "كان عربيا هاشميا ، و كان له قواد من العرب ، كما له قواد من الفرس ، و ولّاه من العرب إلى جانب الولاة من الفرس"⁷.

و العنصر الفارسي لم يكن يرضي مبتغاه فعل ذلك كونه أحس بكيانه و عظمته ، و من ثم بدأت نزعة الشعبوية ، فقد كان الفارسيون يفتخرون على غيرهم و يحطون من قيمة العرب ، يقول "شوقي ضيف" : " أن الشعبوية نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب (أي الشعوب الأعجمية) و في مقدمتها الشعب الفارسي للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم"⁸.

1 - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج3 ، ص 333.

2 - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، العصر العباسي ، ط4 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1981 ، ص 99.

3 - محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعبوية في الأدب العربي ، ص 2 - 3.

4 - نقلا عن أمين أبو الليل ، العصر العباسي الأول ، ص 31.

5 - يراجع: شوقي ضيف ، الفن و مذهب في العصر العربي ، ط12 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1993 ، ص 95.

6 - يراجع: مصطفى بيطام ، مظاهر المجتمع و ملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول ، دط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الساحة المركزية ، بن عكنون ، الجزائر ، 1995 ، ص 365.

7 - فوزي عيسى ، فوزي أمين ، في الأدب العباسي ، ص 42.

8 - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ج3 ، العصر العباسي الأول ، ط13 ، دار المعارف ، القاهرة ، دت ، ص 75.

فالشعوبية على حساب شوقي ضيف كانت تنحو إلى التسوية ، لتظهر بعدها فرقة متطرفة تتجاوز هذا الحد و تعتمد إلى الإزراء بالعرب ، و النزول بهم إلى أحقر المراتب ، فهؤلاء كما يقول "شوقي ضيف" كذلك : " هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعبيين "1.

و تفضيل غيرهم من الأمم على العرب ، و حجتهم في ذلك مثلما نجده في كلام الدكتور "شوقي ضيف" حين يوجز أهم مطاعن الشعوبية على العرب ، إذ يقول : " و كانت أهم مطاعنهم التي وجهوها إلى العرب ، أنهم كانوا بدوا رعاة أغنام و إبل ، و لم يكن لهم ملك و حضارة ، و لا مدينة و لا معرفة بالعلوم "2.

فالشعوبية نعمت على العرب و شتمتهم بالبدواة من جهة رعيهم بالأنعام ، و كذا عدم وجود لهم ملك و علم يفخرون به ، و يواصل شوقي ضيف حديثه عن مطاعن الشعوبية قائلاً : " و قد مضوا يزرعون فيها على خطاباتهم و اعتمادهم فيها على العصا و إشارتهم بها ... و حاولوا تقبيح بعض شيمهم الرفيعة كشيمة الكرم "3.

يتبين من ذلك أن الشعوبية لم تترك للعرب شيئاً إلا و سخرت منهم به ، فهي تعرضت لأدواتهم كالعصا ، كما تعرضت لخصالهم كالكرم ، و هذا إدعانا من الشعوبية من أجل الإزراء بالعرب.

و يضيف "شوقي ضيف" قائلاً : " وزعموا أن الرسول - صلى الله عليه و سلم - فضّلهم على العرب بمثل قوله : (لأننا بهم أوثق مني بكم) و الوضع في هذا الحديث لا يحتاج دليلاً ، و حاولوا أن يستلوا قريشا قوم الرسول - صلى الله عليه و سلم - من العرب و يدخلوهم في غمارهم ، فزعموا أن سائلاً سأل الرسول - صلى الله عليه و سلم - عن أهله و أصل قريش فقال (نحن قوم من نبط كوثي)"4، إذ كان كل ذلك حجج أسقطوها على العرب و حطوا من شأنهم و عابوا عليهم أموراً شتى.

و عن هذه النزعة المتطرفة ظهرت ثلاث اتجاهات بارزة - كما أسلفنا الذكر - هي:

أ- اتجاه يمثله رجال السياسة: الذين أرادوا الإستئثار بالحكم من غير أن يكون للعرب في ذلك أثر يذكر.

ب- اتجاه القوميين: الذين أنقصوا من شأن العرب معتبرين إياهم غزاة اجتاحت ديارهم و قوّضوا أركان دولتهم ، كان اعتبروا العرب - إن صح التعبير - بلغة الاستعمار اليوم.

ج- اتجاه المجان الخلاء: الذين أعجبتهن مفاتن اللّهُو من خمر و مجون و سواهما من مسرات الحياة المدنية الجديدة⁵ ، و نجد من ذلك أبي نواس الذي سيأتي الحديث عنه في الفصل التطبيقي بالتفصيل ، و قد انقسمت هذه النزعة المتطرفة إلى قسمين:

* فريق هاجم العرب من حيث هي أمة قائمة بذاتها ، و لم يشركوا الإسلام في ذلك أو يتعرضون له بسوء ، معتبرون في ذلك أن الإسلام دين الناس جميعاً ، فشأنهم مقتصر على العرب فقط.

* و فريق هاجم العرب و الإسلام معاً ، فهؤلاء قد دفعتهن العصبية الجنسية إلى كره العرب ، و بغض كل ما كان عندهم حتى و لو كان ديناً سماوياً ، و في ذلك يقول الجاحظ : " و ربما كانت العداوة من جهة العصبية فإن عامة من ارتاب الإسلام إنما جاء ذلك من الشعوبية ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، و إذا أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، و كانوا السلف "6.

فهذا القول يصرح بأن كل من انحاز عن الإسلام ، و ارتد عنه كان نتيجة شعوبية ، إذ هؤلاء فرّقوا بين العرب و الإسلام ، و الشعوبية لم تفرّق بين العرب و الإسلام فقط ، و إنما زادت من افتخارها على العرب و الطعن بهم ، إذ قالت الشعوبية : " كيف تفخرون و قد نهاكم نبيكم - صلى الله عليه و سلم - عن ذلك ؟ ، و لا ندري بم تفخرون ؟ أبا الملك أم بالنبوة ؟ ، فإن كان بالملك ... أين ملككم من ملك سليمان - عليه السلام - ... الذي سخر له الإنس و الجن و الطير و الريح "7.

1 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

2 - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ج3 ، العصر العباسي الأول ، ص 76.

3 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

4 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

5 - يراجع: مظاهر المجتمع و ملامح التجديد من خلال الشعر العباسي الأول ، ص 365.

6 - محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن 3 هـ ، ص 4 - 5.

7 - المرجع نفسه ، ص 05.

اتخذت الشعوبية النبي سليمان - عليه السلام - كمثالا و دليلا تقتخر به على العرب ، و تبين من خلاله عظم ملكها و قوة سلطانها ، و تواصل الشعوبية في الحط من شأن العرب بقولها: " و إن كان الفخر بالنبوة فمن الأنبياء و المرسلون قاطبة عدا أربعة: هودا و صالحا ، و إسماعيل و محمد عليهم الصلاة و السلام ، و منّا المصطفون من العالمين آدم و نوحا عليهما السلام "1، يتضح من هذا القول أن الشعوبية اتخذت من الملك و النبوة مقياسا تميز به نفسها عن العرب.

كان التجني على العرب و الإشادة بالفرس في هذه النزعة من قبل العلماء و الشعراء الذين حظوا بتشجيع وافر من رجال الفرس البارزين ، أما العلماء فقد كانوا ينقبون عن مثالب القبائل العربية و في الوقت ذاته يعلنون من شأن الفرس و يببالغون بالإشادة بهم و بحضارتهم و تاريخهم ، و من أولئك العلماء نجد "أبا عبيدة معمر بن المثنى" الذي عنى هو الآخر بالتنقيب عن العرب و الإشادة بالدولة الفارسية ، و وجد ضالته في نقائض جرير و الفرزدق فعكف يشرحها. و من الشعراء نجد "علان الشعوبية" الذي ألف كتابا سماه "الميدان في المثالب" تعرض فيه لما يزيد عن خمسين قبيلة و في مقدمتها قريش ، و في هذا الكتاب عمل هو أيضا بالتنقيب على مثالب العرب ، يقول الدكتور "عز الدين إسماعيل": " يقتنصون الحادثة المفردة مما وقع لفرد من إحدى القبائل العربية فيه ما يعيب ، فإذا بهم يعممون الحكم على القبيلة كلها و على العرب أجمع ، و من جهة أخرى خرجوا في حديثهم عن مناقب العجم إلى المبالغة ، حتى تبدو الفروق بين العجم و العرب باهظة "2 .

يفهم من قول الدكتور عز الدين إسماعيل على أن هؤلاء العلماء و الشعراء الشعوبيين ينتهزون الفرصة لسماع حادثة واحدة فيطبّقونها و يعمّمونها من جهة الحكم على القبيلة و العرب أجمع، فمثلا إذا قام عربي بجرم السرقة و كان في قبيلته العربية ثلاثمائة فرد ، و في القبائل العربية ست قبائل ، فعند هؤلاء الشعوبيين الذين يزرون بالعرب و يحطون من شأنهم ، يجعلون جرم السرقة جرم عامّة العرب ، فالتعميم يكون عند هؤلاء نتيجة حاصل ضرب ثلاثمائة في ستة (6 × 300) فالنتيجة ألف و ثمانمائة عربي قاموا بالسرقة ، و تعد القبيلة العربية سرّاقة و العرب سرّاق ، و هذا كله مبالغ فيه و إجحاف في حق العرب ، في حين أن هؤلاء العلماء و الشعراء كانوا متعصبين للفرس أشد تعصب يببالغون أشد مبالغة في الإشادة بمناقبهم.

فإذا قام أحدهم بعمل خيري ، فحينئذ هذا الأمر يطبق و يعمم على عامة الفرس ، و يعدد في سجل آثارهم للمرة الألف ، و لا يحتسبون على العربي فعل مثل ذلك ، و إن كان للعربي شيمته الباهضة في فعل هذا ، و إنما يحتسبون عليه فقط نقاط السقوط و الفضيحة ليعمّمونها على عامته ، أما عنهم فلا ، فهم يحتسبون لأنفسهم فقط ما حققوه من إنجازات و انتصارات و ثقافات.

فتبدو هنا الفروق واضحة بينهم و بين العرب ، فالعربي يرّجحون له كفة المساوي على المحاسن ، و الفرس ترجح لنفسها كفة المحاسن بالمبالغة على حساب المساوي بالنفي ، و هذا كله إمعانا و احتقارا و إزراء و ازدراء بشأن العرب.

و قد فخر الشعراء إلى جانب فخر الفرس بإسحاق بن إبراهيم - عليهما السلام - ، و أنه لسارة الحرة ، و أن إسماعيل النبي العربي لأمة هي هاجر ، في ذلك يقول شاعرهم:

و لا لجرم و لا نهد بها وطن
أرض بينى بها كسرى دساكره

و لكنها لبني الأحرار أوطان
فما بها من بني اللّخناء إنسان

فبنو الأحرار عندهم "العجم" و بنو اللّخناء عندهم العرب لأنهم من ولد هاجر و هي أمة³. و أهم شاعر أوقد نيران هذه الخصومة نجد "بشار بن برد" حيث مضى يشن حربا على العرب ، زاعما أنه ينتسب من قبل أمه إلى قياصرة الروم على نحو ما نجد في قصيدته:

هل من رسولٍ مخبرٍ
بأنني ذو حسبٍ

عني جميع العرب
عالٍ على ذي الحساب⁴.

1 - المرجع نفسه ، ص 06.

2 - فوزي عيسى ، فوزي أمين ، في الأدب العباسي ، ص 44 - 45.

3 - محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن 03 هـ ، ص 6 - 7.

4 - ديوان بشار بن برد ، إحسان عباس ، ط1 دار صادر ، بيروت ، 2000 ، ص 136.

هذه الأبيات تصور حقه على العرب ، حيث فيها يقارن بين بداوتهم ، و حضارة أبائهم من الفرس و الروم ، و قوله أيضا في افتخاره على العرب:

سأخبر فاخر الأعراب عني
أحين كُسيبت بعد العربي خزا
و كنت إذا ظمئت إلى قراح
و عنه حين تأذن بالفخار
و نامدتُ الكرام على العقار
شركتُ الكلب في ولغ الإطار¹.

فما نلاحظه في هذه الأبيات أن الكلام فيه استهزاء بالعرب و الحط من قيمتهم ، حيث نجد الشاعر يعايرهم ببداوتهم ، و صعوبة عيشهم ، فلا يرى العربي أهلا له في المفخرة.
و من مثيري هذه النزعة في العصر العباسي الثاني كذلك نجد الشاعر "سعيد بن حميد" الذي وضع كتابا سماه "فضل العجم على العرب و افتخارها" ، و الشاعر "المتوكلي" الذي يقول في شعبية حاقدة:

فقل لبني هاشم أجمعين
و عودوا إلى أرضكم بالحجاز
فإنني سأعلو سرير الملوك
هلموا إلى الخلع قبل الندم
لأكل الضباب و رعي الغنم
بحد الحسام و حرف القلم².

فتظهر من أبيات المتوكلي سخرية واضحة بالعرب من خلال الإطاحة بهم ، و رفع شأنه.
من خلال هذه النزعات الثلاث نستنتج أن الشعبية بدأت مستندة على الدين الإسلامي نفسه ، من حيث الناس سواسية ، ثم اتجهت إلى تحقير العرب و الحط من شأنهم ، و بيان ميزة الأمم الأخرى عليهم ، و الذي ساعد على ذلك نفوذ الفرس في الدولة العباسية و إن كان الاختلاف بين النزعات حول أحقية كل واحدة منها باسم الشعبية.

فهناك من يرى أن لفظ الشعبية يصدق على النزعتين الأخيرتين (المساواة و الحط من شأن العرب) ، في حين يرى "شوقي ضيف" - كما أسلفنا الذكر - أن النزعة الثالثة هي التي تصدق عليها لفظة الشعبية أي نزعة الحط من شأن العرب.
و هناك من يقول بأن الطائفة الثانية أي المساواة ، التي تقول بالشعوب أي لا فرق بين الشعوب من عرب و غيرهم ، على حد ما وجدنا عند الجاحظ و ابن قتيبة ، فهذه النزعة عندهم هي الأحق بذلك الاسم ، و يبقى الجدل حول ذلك قائم لا محال.
أهدافها و أساليبها:

لقد كان للحركة الشعبية أهداف و مرامي ، سعت لتحقيقها و الوصول إليها منذ ميلادها ، متبعة بذلك شتى الطرق و الأساليب تراوحت بين الظاهر و الخفي ، و من جملة الأهداف و الأساليب نذكر:

1- إرباك العقائد و تشويه المفاهيم الإسلامية:

و كان مبتغاها زعزعة قاعدة المجتمع و أساسه ، فهي لم تكن سوى بذرة معاكسة لتوجهات الإسلام ، فما كان هدفها سوى محو و مسخ الإسلام و المسلمين ، معتمدة في ذلك أسلوب التحوير لمعاني النصوص و المفاهيم الإسلامية ، أي تقوم بتفسير النصوص و تأويلها وفق ما يخدم مصالحها ، ويرضي مبتغاها لا كما أراده الدين الجديد ، و من أمثلة ذلك قوله تعالى: "يَأْيُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا"³.

و هؤلاء الشعبويون فسروا و أولوا معنى هذه الآية بأن العجم هم الشعوب و القبائل هم العرب ، و ذلك بتقديمهم في الآية حسب تأويلهم لها بذلك المعنى يدل على أن الله فضلهم على العرب.

2- التنديد بالمثل الخلقية و بالقيم العربية الإسلامية:

فالشعبوية تعمل على رفض كل ما هو أخلاقي و ما يتصل بتعاليم الإسلام من مثل عليا كالأخوة و المساواة و التعاون ، و رفض العدوانية ، و تجنح إلى إرساء العصبية و التباهي بالسلطان و طمع السيادة بطريق غير مشروع ، لا يوافق ذلك كله أحكام الدين الإسلامي.

1 - المصدر نفسه ، ص 341 - 342.

2 - أمين أبو الليل ، العصر العباسي الثاني ، ص 47 ، نقلا عن ضحى الإسلام ، ج 1.

3 - سورة الحجرات ، الآية 13.

و الشعوبية لغرس ذلك تعتمد على أسلوب "الظرف" و "الحضارة" ، فالوسط الحضاري عندهم قائم على اللهو و العبث و المجون و ظرف الحرية الإجتماعية حاملة لهذين الأسلوبين ، و هي مقتنعة بفعاليتها لتفكيك الروابط و إضعاف الكيان الإجتماعي.

3- طمس الذات العربية و قطع الجذور التاريخية و الثقافية لها و تشتيت شملها:

سعت الشعوبية إلى محو العرب و تراثهم عامة و تشويه تاريخهم ، و قلع شوكة وحدتهم ، و أسلوبها في ذلك ، مهاجمة الأنساب العربية القديمة ، و التشكيك في شعرهم بما تدخله فيه من انتحال ، و مهاجمة العربية¹.

4- إنكار دور العرب في حمل الرسالة الإنسانية ، و محاولة طمس دورهم الحضاري:

فهم لا يعيرون أية أهمية للعرب ، بما أسهموه في خدمة الإسلام و ما عملوه في ترويج رسالته، مدّعية في ذلك أن الحضارة العربية الإسلامية ما هي إلا اقتباسات من حضارة الأعاجم ، و مبتغاها في ذلك زعزعة الثقة بالذات ، و لفت انتباه الجميع إلى ثقافتهم.

5- إحياء التراث الأعجمي و تمجيد آثاره و بثه في المجتمع العربي الإسلامي:

فالشعوبية في هذا قامت على إعادة الإعتبار بالتراث الأعجمي ، و الفخر به ، و إشاعته في المجتمع العربي الإسلامي ، و كأن هذا الأخير لا تراث له في نظرها.

6- طبع الإدارة و الحياة العامة بطابع أعجمي:

و معنى ذلك أن الشعوبية تجعل الحياة العامة تحت إمارة العجم ، أو بمعنى آخر الأعاجم هم الأصل ، و غيرهم الفرع ، و الأصل هو المدبر و المسير ، فما على الفرع سوى الإنطواء تحت حكمه ، حيث عمدت إلى ترجمة الكتب عن الفارسية ، مثلا في العادات و شكل الحكم و الأخلاق ، ناسبة إياها للقدماء من أجل نشرها و ترويجها في المجتمع العربي ، و بالتالي تصبح ثقافة الكتب هي ثقافة أعجمية ، و في هذا جاعلة من كتاب الدواوين حملة تراثها الثقافي للتأثير في التوجيه الفكري و الثقافي. و رغم كل ما سطرته من أساليب لتحقيق أهدافها ، إلا أن ذلك لم يغنها عن اللجوء إلى استعمال أساليب أخرى كالإغتيال متوسلة بذلك بالخنق و الحجارة و الحبال².

الرد على الشعوبية:

قدمت الشعوبية امتحانا ساخنا ، شارك فيه معظم الشرائح الإجتماعية على اختلاف هويتها و مكانتها ، فمنهم من نحا بهذا الإمتحان منحى مبتغاها (الشعوبية) فكانت له الدرجة العليا ، منحها له بامتياز ، و منهم من خالفها و أجاب بلون معاكس لفكرتها ، فكانت له الدرجة الدنيا ، و لم يبال بذلك ، و واصل في طعنه لها ، و دحض فكرتها الرخيصة ، و قمع سلطانها ، هذا و إن كان قد غلط الشعوبية و بادلته هذه الأخيرة حربا ، إلا أنه قد حضي بإعجاب و تميز لدى العامة من الناس ، المنادون بفكرة لا تقاضل إلا بالتقوى.

و من أولئك الذين جرّوا أعلامهم للرد على مطاعن الشعوبية ، نجد من بينهم "ابن قتيبة" و "الجاحظ".

1- رد ابن قتيبة على الشعوبية:

سخر ابن قتيبة كل قواه للرد على الشعوبية و مطاعنها ، و دافع عن العرب دفاعا قويا بدا فيه عربيا أكثر من العرب ، و هذا ما دفع البعض إلى إعداده من سمط العرب ، غير أنه لم يكن كذلك. و قد كان ابن قتيبة معتدلا محايدا مثله مثل القاضي ، منصفا في إعطاء كل ذي حق حقه ، يعطي ما لقيصر لقيصر ، و ما لله لله. و حينما بدت الشعوبية شوكتها على العرب متهمّة عليهم ، شرع في

1 - يراجع: عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص 94.

2 - يراجع: عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية لشعوبية ، ص 94 - 95.

الرد عليها ، حتى كان له في ذلك كتاب سماه "كتاب فضل العرب على العجم"¹، و المتأمل لعنوان هذا الكتاب يحسب صاحبه عربيا ، و في الحقيقة ابن قتيبة ذو أصل فارسي ، و ما دفعه لتأليف كتاب بذلك العنوان هو إنصافه ، قال ابن قتيبة : " ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب بآدم عليه السلام ، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام : لا تقضلوني عليه ، فإنما أنا حسنة من حسناته ، ثم فخرهم بالأنبياء أجمعين ، وأنهم من العجم غير أربعة "²، واحتجوا بقول الله عز وجل : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "³، " وفخرهم بإسحاق بن إبراهيم وأنه لسارة ، وأن إسماعيل لأمة تسمى هاجر "⁴.

"بنو الأحرار عندهم : العجم ، وبنو اللخناء عندهم : "العرب" ، لأنهم من ولد "هاجر" وهي أمة ، وغلطوا في هذا التأويل ، وليس كل أمة يقال لها اللخناء إنما اللخناء من الإيماء الممتهنة في رعي الإبل ، وسقيها وجمع الحطب ، وأخذ من اللخن وهو نتن الريح ، ويقال :لخن السقاء ، إذا تغير ريحه فأما مثل "هاجر" التي طهرها الله من كل دنس ، وارتضاها للخليل فراشا ، وللطيبين إسماعيل ومحمد أما ، وجعلها سلالة . فهل يجوز لمحمد فضلا عن مسلم ، أن يسميها لخناء ؟ "⁵.

فهكذا كان الرد اللاذع من قبل : "ابن قتيبة" لهؤلاء الملحدون .

فابن قتيبة من خلال هذين القولين يحصر رده على الشعوبية في أربع معايير هي :

- 1- فخرهم على العرب بآدم عليه السلام .
- 2- فخرهم بالأنبياء أجمعين وأنهم من العجم ما عدا أربعة .
- 3- فخرهم بإسحاق بن إبراهيم عليهما السلام وأنه لسارة الحرة .
- 4- تهجمهم على إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وأنه لهاجر الأمة .

فإذا تمعنا في هذه المعايير واحدا واحدا نجد :

أن فخرهم على العرب بآدم عليه السلام ، قول باطل ولا معنى له ، لأن آدم أبو البشرية جميعا ، سواء كانوا عربا أم عجمًا ، فلا مجال لأن يفخر العجمي على العربي بهذا ، والعكس صحيح.

وفخرهم بالأنبياء أجمعين عدا الأربعة : هود ، صالح ، إسماعيل ، محمد ، فيما أنهم لا يفخرون بهؤلاء الأربعة ، فأمر حتمي أنهم يفخرون بالأنبياء الآخرين منهم ، آدم وإبراهيم ، والتنصيص في ذلك : أن محمدا وإسماعيل من ولد إبراهيم ، وهؤلاء كلهم من ولد "آدم" لأنه أبو البشرية، فكيف يفخرون بالأب ويتعاضون عن الإبن، مع أن كل منهما يشترك في صفة النبوة ؟

أو كيف يفرقون بين الآباء الأنبياء عن الأبناء الأنبياء ، ماداموا مشغوفين بحب الآباء الأنبياء ، أفلا يكون ذلك نقص في الإيمان والتوحيد ؟

كما أن تهجمهم على "هاجر" وافتخارهم "بسارة" ، كذلك غلط وفحش ، فهاتان المرأتان خليتا النبي "إبراهيم" عليه السلام ، وهو بدوره محط افتخار هؤلاء العجم ، فكيف يحطون من شأن هاجر ، ويرفعون من شأن سارة ، واكلتاهما لهما المقام المحمود عند النبي "إبراهيم" عليه السلام ، فهذا يعد تناقض في ميزان أعمالهم ، لأن إسماعيل من ولد هاجر وإبراهيم عليهم السلام ، كما نجد "ابن قتيبة" يرد على الشعوبية من حيث أخذها بظاهر القرآن الكريم والسنة النبوية ، دون الغوص في باطنهما واكتشاف المعنى الحقيقي لهما ، والنصان الكريمان يقران المساواة التامة بين الجميع⁶.

ونجد من تفسير الشعوبية بقول الله عز وجل : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ "⁷.

يرى ابن قتيبة أنهم غلطوا من وجهين ، أحدهما أن تقديم الذكر لا يوجب تقديم الفضل ، ويستدل بذلك بقوله تعالى "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ"⁸ فقدم الجن عن الإنس ، والإنس أفضل منها ، والوجه الآخر

1 - يراجع: مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى القرن 03 هـ ، ص 426.

2- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 3 ، ص 334.

3- سورة آل عمران ، الآية [33-34] .

4- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 3 ، ص 334 .

5 - المصدر نفسه ، ص 335.

1- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج 3 ، ص 333.

2- سورة الحجرات الآية 13 .

3- سورة الأنعام ، الآية 130.

أن العجم ليست بالشعب أولى من العرب ، وكل قوم كثروا انشعبوا فقد صاروا شعوبا ، هكذا إذن كانت كلمات "ابن قتيبة" مقوِّسة اتجاه هجمات الشعوبية فرغم بساطتها إلا إنها بليغة وذو غاية وجيهة أصابت الهدف¹.

2- رد الجاحظ على الشعوبية :

لقد أطلق الجاحظ فيهم لسانه ، ومن ذلك نجد محاربتة لهم في كتبه : البيان والتبيين و البخلاء والحيوان ، كما حاربهم في غيرها من الكتب التي زالت ، ولم يبق منها سوى أسماؤها تنطق بمضمونها ، ككتاب "العرب والعجم" و "العرب والموالي" .

وفي كتابه :البيان والتبيين" : صال قلم الجاحظ واضح الغاية ، صريح العبارة يشيد بقومه تارة ، ويرد على خصومه وهو في ذلك يعطي الحجة المقنعة ، ويقابل الدليل القوي بالدليل الأقوى ، ويزخرف عبارات الرّد عليهم بأقوال تتراوح بين المنظوم والمنثور .

وفي حديثه عن البلاغة والبيان أشاد بفصاحة العرب وأثبت اللّكنة للأعاجم مستدلاً على ذلك بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين². وفي لكنة الأعاجم يقول : "النبطي القح يجعل الزاي سينا ، فإذا أراد أن يقول "زروق" قال سورق"³.

و ذكر من الشعراء اللّكن : "زياد الأعجم الذي كان يجعل السين شيئا ، والطاء تاء فيقول في السلطان مثلاً شلتان"⁴.

وفي الرد على الشعوبية نراه يفرد باباً مستقلاً سماه : "كتاب العصا" وأصل هذا الباب كما يقول "طه حسين" : "أن الشعوبية كانوا ينكرون على العرب الخطابة ، وينكرون على خطباء العرب ما كانوا يصطنعون أثناء خطاباتهم من هيئة وشكل ، وما كانوا يتخذون من أداة وكانوا يعيرون على العرب اتخاذ العصا و المخصرة وهم يخطبون ، فكتب الجاحظ كتاب العصا ليثبت أن العرب أخطب من العجم ، وأن اتخاذ العربي للعصا لا يغضّ من فنّه الخطابي ... أليست العصا محمودة في القرآن والسنة وفي التوراة وفي أحاديث القدماء ..."⁵.

فيفهم من هذا القول على أن الشعوبية تهجمت على فنون القول لدى العرب ، منها الخطابة ، و قللوا من شأن الخطباء العرب ، منتقدة إيّاهم في شكلهم و هيئتهم وحملهم للعصا .

و هذا ما دفع بالجاحظ للرّد عليها في ذلك ، من خلال تأليفه كتاب "العصا" ميرها به على عبقرية العرب في الخطابة ، و تفوقها في ذلك على العجم ، معطياً دليلاً قاطعاً على مكانة العصا و ذكرها في الكتب السماوية من جهة وكتب القدماء من جهة أخرى.

نستنتج من خلال هذين الرّدين (الجاحظ و ابن قتيبة) وفعالية و جدارة كل منهما في الحدّ من هذه الثورة الشعوبية ، فقد ساهما باللسان و القلم ، فجردا في ذلك الكتب القيّمة لمواجهة لسعات هذه النزعة ، و كل واحد منهما لم ينتقص شأناً عن الآخر ، فقد تنافسا إلى حد بعيد في إبراز هيئته و الإنتصار للعرب على اختلاف أصليهما ، فإن كان الجاحظ عربي ، فالأمر يتطلب منه الإنتصار للعرب ، أما ابن قتيبة فالأمر ليس حتمي عليه في فعل ذلك إلا أنه حقق ذلك .

4- يراجع عباس الجراري ، في الشعر السياسي ، ط2 ، الشركة الجديدة ، دار الثقافة ، المغرب ، الدار البيضاء ، 1982 ، ص 222.

2 - يراجع مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى القرن 3هـ ، ص 441 – 442.

2- الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج1 ، تح: عبد السلام هارون ، ط7 ، مكتبة الخانجي للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 1998 ، ص 70.

3- محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى ق 3هـ ، ص 442.

5 - محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى ق 3هـ ، ص 443.

الفصل الثاني: شعوبية أبي نواس

- تعريفه و شعره.

- شعوبيته.

- تجليات الشعوبية في شعره و حقيقتها فيه.

التعريف بالشاعر:

1- نسبه:

هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول الحكمي¹ بن الصباح المعروف بأبي نواس الشاعر المشهور ، كان جده مولى الجراح بن عبد الله الحكمي والي خراسان ، أما أبوه هانئ فكان من جند مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية ، و انتقل إلى الأهواز ، فتزوج "جلبان" و أنجب منها عدة أولاد منهم "أبو نواس" ، و قد تعددت الآراء حول مسقط رأسه منها ما يقول: إن أبا نواس ولد بالأهواز و هو أقرب إلى الصحة من ذلك الذي يقول إنه ولد بالبصرة².

و أصل أبي نواس عربي يمني ، لكن أمه أهوازية ، و بدأ لم يكن هذا الشاعر عربيا و لا فارسيا أما و أبا ، و إنما زواج بين الأصلين ، فقد ولد من أب عربي و أم فارسية ، و بدأ فقد جمع بين الثقافتين العربية و الفارسية ، كما جمع بأصله بينهما³.

2- مولده و وفاته:

1 - أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص 272.

2 - زين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي والأندلسي ، ص 195.

3 - يراجع: إبراهيم علي أبو الخشب ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، ط1 ، دار الفكر العربي ، 1966 ، ص 286.

اختلفت الآراء حول مولد أبي نواس و وفاته ، و مع ذلك فهناك ما يشبه الإجماع على أنه مات سنة مائة و تسع و تسعين للهجرة (199هـ) ، ما يؤكد ذلك أن أبا نواس شهد موت "الأمين" الذي قتل سنة مائة و ثمان و تسعين (198هـ) ، أما مولد هذا الشاعر بأرجح الأقوال تذهب إلى أن مولده كان سنة مائة و إحدى و أربعين (141هـ).

3- نشأته:

مات هانئ و ابنه صغير ، فانتقلت به أمه إلى البصرة و هو ابن ست سنين ، فأسلمته إلى الكتاب ، و لم يلبث أن اختلف إلى دروس العلماء حين شبَّ عن الطوق فيأخذ من شيوخه و علمائه و يتفقه في الدراسات اللغوية و الدينية و يتردد بين الشعر القديم و يحسن التأمل في معانيه ، يقول الدكتور "أحمد زكي" : " و خلفية الشاعر خصبة ، فقد عكف على قراءة القرآن و دراسة اللغة ثم عالج كتاب سيبويه ¹ .

4- شيوخه:

تخرَّج في الحديث على أكبر شيوخ البصرة ، لزم "أبا محرز خلف الأحمر" فدربَّه على الشعر ، لذلك طرق مجالس "أبي عبيدة" و "أبي حاتم السجستاني" و "الأصمعي" ² ، و من ثمة يقول الدكتور "أحمد كمال زكي" : " عرف أخبار العرب و أشعارهم و نوادرهم ، و أحاط في الوقت نفسه بأخبار العجم ، و عرف الفارسية و تكلم العربية " ³ .

و يفهم من كل هذا على أن أبا نواس غاص في بحر الثقافة ، ليتشرب من جل معارفها ، ينهل منها ، فما من علم إلا و كان لأبي نواس أثر فيه و حكاية معه ، فلم ينصب أبو نواس على قراءة الشعر فقط ، و إنما تعلم و تفقه في أمور عدة ، و من بين هذه الأمور التي ساقتنا بدهشة توحى بإدراك أبي نواس لها ، هي الأمور "الدينية" ، فقد كان عالماً فقيهاً بها ، قرأ القرآن و عرف الناسخ و المنسوخ ، و قرأ الحديث ⁴ .

5- صفاته و أخلاقه:

كان أبو نواس جميل الصورة ، خفيف الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، فصيح اللسان ، مدمناً للخمر ، كثير الهزل و المجون ، جامعاً لأشتات الصفات التي يجب أن تكون في النديم ⁵ . نلاحظ من صفات أبي نواس ما يوحي بعظمة الخالق عز و جل ، حيث أعطى لعبده أبي نواس من جمال المظهر و خفة الروح ، لو كان أبو نواس ذو نفس طيبة لأكرمت خالقها بالشكر الجزيل على ذلك و استغلت ذلك في طاعته عز و جل ، و نجد كذلك من ثروات لسان هذا الشاعر تنحو نحو حلو حديثه و فصاحته ، و هذا راجع إلى سبب وحيد و أهم و هو عكوفه على دراسة القرآن و الحديث و التدبُّر فيهما ، كما نجد فيه غزارة فكر و ذكاء و فطنة أكرمه الله سبحانه و تعالى لِمَا درس من العلوم الكثير ، فيا لها من نعم أرادها الخالق في عبده ، و يا لها من مزايا لو استغلها هذا العبد الشقي في حياته ، لكنه اختار لنفسه غير هذا السبيل ، حيث عاج عليه المجون و اعتاد على شرب الخمر ، مستخفاً بأمور الدين ، فكيف يكون أبو نواس كذلك رغم أن نشأته كانت دينية ؟ ، أو ما الذي جعل أبو نواس يصير ماجناً ، صاحب انحلال اجتماعي و أخلاقي ؟ ، أو ما هي المؤثرات وراء اعوجاج شخص أبي نواس ؟ ، كل هذه الأسئلة يجاب عليها بمعرفة الأسباب المؤدية إلى ذلك و لعل من أهمها نذكر:

أ- عصره: عصر أبي نواس هو عصر كثر فيه الفساد ، و هذا الفساد ما دعت إليه الحضارة العباسية ذات السلطة الفارسية ، فالفرس كانت لها من العلوم و الثقافات ما يكفي فآثروها على البيئة العباسية ، و من ثمة تقلدوا أصحابها و انجروا يعبِّرون عنها بما تمليه عليهم أفكارهم و عقولهم ، فالعباسيون استفادوا من علوم الفرس كالترجمة و الكتابة ، و العربي لم يكن موهوباً بهاتين ، فلما دخلنا عليه انبهر بهما ، و انبهاره لم يكن قاصر على ذلك فقط ، فقد توغَّل في علوم الفرس و ثقافته بلا تفكير فيما يصلحه عمّا يفسده ، و أبو نواس هو ابن الثقافة الفارسية و قد أخذ عنها الكثير ، و لكل حضارة إلا و لها محاسنها و مساوئها ، و هذه الحضارة العباسية الفارسية ، و رغم ما أحدثته من تطور فكري و علمي و معرفي فقد استهزأت بجانب هو أرقى المعارف و هو الجانب "الأخلاقي" ، إذ كثر في وسط هذه البيئة المجان ، و أصحاب

1 - زين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي و الأندلسي ، ص 196 .

2 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

3 - زين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي و الأندلسي ، ص 196 .

4 - يراجع: المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

5 - يراجع: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ، ص 273 .

الألسنة البذيئة "و من شأن هذه الحالة أن تتأدى بصاحبها إلى واحدة من اثنين ، إما البحث عن المتعة من غير رعاية لعرف أو خوف أو حساب ، أو رقابة ضمير ، وإما الإنزواء عن معتك الحياة و اعتزال المجتمع ..."¹.

غير أن شاعرنا أبا نواس اختار الطريقة الأولى المنطوية على إشباع اللذة بعدة طرق ، فعاش شقيا ، ماجنا ، و صفة المجون كثر و انتشر صداها في الوسط العباسي الفارسي و هذه إحدى ثقافة الفرس السلبية ، " و إذا كانت روح العصر من الأسس القوية في تكوين شخصية أبي نواس ، فإن الظروف التي اكتنفت حياته من البداية أثرا كثيرا في تكوينها"².

ب- الظروف المحاطة به: نشأ أبو نواس يتيما ، انتقلت به أمه إلى البصرة بعد وفاة أبيه و عمره لا يتخطى مرحلة الطفولة و الصبيان فتكفلت به ، و سعت وراء لقمة عيشه هو و إخوته ، حتى أنها اضطرت لأن تجعل من بيتها ناديا يلتقي فيه رواد المتعة مشبعي اللذات ، فيقضون في بيتها كل ما أرادوا فعله هناك ، و قد انتهى الحال إلى أن تزوجت برجل تفاديا لوقع الألسنة التي كانت تدور حولها ، و كفا لأذى السهام الموجهة صوبها ، و لا شك أن هذا الزواج حتميا يؤدي إلى قطع الصلة بينها و بين ابنها أبا نواس ، فهي تتفرغ لمتطلبات زوجها الثاني و تعجز أن تلم زوجها بابنها لأن لا أحد يقبل بالآخر ، و ما عسى الأم في ذلك إلا الحيرة و الخضوع للمسؤولية الزوجية ، و هذا ما حدث ، فجدير هذا العصر الماجن بظروفه القاسية أن يرسم شخص أبا نواس ، فهو عاش يتيم الأب ، ثم يتيم الأم بزواجها مجددا ، إذ لقي من المعاناة و المآسي ما يضهد كتفيه ، بعدها خاض غمرات في بحر باطنة تمثل في نشأته الدينية و اللغوية ، أما ظاهر هذا البحر تعلوه أمواج تقذف به أحيانا إلى وسطه المملوء بحياته الماجنة و يصعب التخلي عنها في وسط عصر يدعو إلى فعل مثل ذلك ، و أحيانا أخرى تقذفه (الأمواج) إلى الشاطئ الصحراوي الجاف القاسي الظروف³ ، و لم يكن عامل العصر و الظروف وحدهما الكافيان على صنع شخص أبي نواس بل تضاف إليهما عوامل أخرى هي:

ج- الزمن: " فالحضارة الفارسية بلغت درجة عظيمة في عصر الرشيد و وزرائه البرامكة ، و هو العصر الذي عاش فيه أبي نواس و استنفذ شبابه و شيخوخته"⁴ ، فعامل الزمن كان له أثر واضح في تكوين شخصية أبي نواس المصرّة على اللذات.

د- الحرية: لقد أسلمت جليان ابنها الحسن إلى عطار يبيري له أعواد البخور و أقبلت على شؤونها ، و وجد الحسن نفسه حرّا طليقا ، لا تربطه بالبيت تلك الصلة العميقة التي يحس بها كل طفل ، فكان لا يأوي إلى البيت إلا لينام ، فيستريح من تعب النهار في دكان العطار و يقضي مذاكرة الليل في المسجد الجامع ، فلم يترك ليلة بلا ذهاب إلى المسجد الذي يفيض بشئى رواة المعارف و العلوم ، إذ لم يترك عالم أو رواية أو محدث أو فقيه إلا و استمع إليه ، و ظلّ على هذه الحال مدة طويلة ، فوجد أبو نواس من الإعجاب في شخصيته المرححة ، فحببوه إليهم ، و عطفوا عليه ، و خاصة و أن هذا الشعور لم يجده في البيت فانغمس معهم و نسي عمله الذي أرادته له أمه.

و في هذا الإختلاط عاشر الكثير فمنهم الصّالح و منهم المفسد ، و عن المفسدين تعلم منهم كيف يتعاطى الخمر ، فداوم عليها إذ هو يجد من اللذة و النشوة شيئا مثيرا ، و لم يدم طويلا حتى غاص في غيبات الأتراب ، فهذه حال من لا راع له ، أحس أبو نواس بالحرية ، لا أحد يراقبه و يعاتبه ، فأطلق العنان لإشباع لذته⁵.

هـ- الرحلات: لقد حظي أبو نواس برحلات عدة شملت ربوع الشام و مصر و العراق⁶ ، و من ثمّ زادت ثقافته في الحياة فأراد أن يلامسها في جدتها ، و أن يجاري ما فيها من متع حسية ، فهو مناصر للواقع الجديد ، و بالتالي لا يبالي بالماضي العقيم ، و يرى في عقيدته أن الشخص السوي هو الذي يعيش الحاضر ، و يلّم بما يوجد فيه ، فكان أبو نواس كذلك حيث لم يستهل قصائده ببكاء على الأطلال كما كان

1 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص (خ).

2 - ديوان أبي نواس ، ص (ط).

3 - يراجع: المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

4 - حامد حنفي داود ، تاريخ الأدب العربي في ع ع 1 من سنة (132 إلى 334 هـ) ، ط2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ،

بن عكنون ، الجزائر ، 1993 ، ص 23.

5 - يراجع: ديوان أبي نواس ، ص (ي.ك).

6 - حامد حنفي داود ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، ص 23.

يفعل الشعراء القدامى ، و إنما افتتح قصائده بالتعني بالخمرة و وصف مجالسها ، و هي المجالس التي لا يكاد ينقطع عنها و إلي هذا يشير بقوله:

صِفَةُ الطَّلُولِ بِلَاغَةُ الْفُؤَمِ فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لِابْنَةِ الْكَرَمِ¹.

فكل ذلك يعدّ أسبابا جعلت من شخصية أبي نواس تنحو إلى الإعوجاج الخلقى و الإجتماعي بعيدا عن السلاسة و الرّفعة ، فالفرد إذا عاش يتيما في كنف بيئة عمرته بالأشياء النيرة التي تجعله سويا ، متوازنا ، متخلقا ، فبالتالي تعود بالإيجاب عليه و من ثمة يتقمص شخصيته منها ، لكنّ أبا نواس وجد غير ذلك ، فيتمه قابله عصر فيه من الشر أكثر من الخير ، خالط الأردال أكثر من الشرفاء ، و هذا يوحي إلى سبب آخر يعدّ يد جرم لأبي نواس هو:

و- لقاؤه بوالبة بن الحباب: " ما يعرف عن هذا الشاعر انه أفحش النَّاس أخلاقا ، و أشدّهم إقداما على معصية ، فهذا الإتصال و تلك المصاحبة كان له أبلغ الأثر في تكوين شخص أبي نواس و أدبه "².

إن المرء قابل للأخذ و الرّد ، له قابلية التأثير و التآثر ، و خير ما يتأثر به الفرد هو ما يصدر عن الخلان الأوفياء الشرفاء ذوي السمعة الطيبة فأبو نواس إضافة إلى ما عاشه من يتم ، و ما عارضه من فجور و فتور في وسط ينادي على ذلك ، فقد كانت صحبة السوء هي الأخرى من شأنها أن ترسم فيه صورة تمثال مشوّه ، و من شأنها أيضا أن تترك فيه بصمات سوداء ، هكذا كان لوالبة بن الحباب الشاعر الماجن أن يفعل في أبي نواس هذا الفعل ، و قد حصل ذلك عندما جاء "والبة" من الأهواز إلى البصرة حيث يمكث "الحسن" هناك ، و رأى والبة الحسن فاستحسنه بما كان عليه من فطنة و ذكاء و معرفة.

فقد روى "ابن خلکان" : أن أبا أسامة والبة بن الحباب رأى الحسن فاستحلاه ، فقال: إنني أرى فيك مخايل ، أرى أن لا تضيّعها ، فاصحبني أخرجك³ ، فدار الحديث بين هذين الشاعر الأستاذ الماجن "والبة بن الحباب" و التلميذ الشغوف لتعلم ذلك "أبو نواس" ، حيث قال أبو نواس لوالبة بعدما طلب منه الصحبة: من أنت ؟ ، فقال له: أنا أبو أسامة والبة بن الحباب ، فأجاب أبو نواس للذناء بقوله نعم ، أنا في طلبك ، مواصلا في قوله ، فقد أردت الخروج إلى الكوفة بسببك لأخذ عنك و أسمع شعرك⁴.

و يضيف صاحب الأغاني إلى هذا الخبر أن والبة سأله : " لماذا ؟ " ، فقال: " شهوة للقائك ، و لأبيات حفظتها لك ... " فقال ، و ما هي ؟ ، فأنشد الحسن أبيات والبة التي يقول فيها:

و لها - و لا ذنب لها - حُبُّ كأطراف الرّماح⁵.

فسرّ والبة بالحسن سرورا عظيما و أخذه معه إلى الكوفة.

ظلّ أبو نواس يلزم والبة ، و يحضر معه مجالس الشعراء ، و كانوا يعقدونها في كل يوم للشرب ، و هم يشربون يتطرقون لكل ما تذهب إليه عقولهم و تنطق به ألسنتهم ، و جلّ موضوعاتهم يتناولونها حول ما يجري على ساحة العرب من فتن أو أقوال شعر و غيرها من تحسّسات تتناوبهم ، و لا شكّ و أن هذه المجالس كانت تعجّ بنفوس متباينة و جنسيات مختلفة و طبائع نادرة ، فمنها الماجن و الزنديق و الشعوبيّ ، و المتعصب للعرب أو الفرس ، و مشاركة أبو نواس في تلك المجالس أشبه ما تكون بالمدامومة عليها ، فقد تعلّق بها و بأصحابها و تأثر بها إلى درجة أنه اكتسب من طبائع أصحابها الشيء الكثير ، حتى أن أحدا لا يستطيع أن يميّزه عنهم ، إذ اعتنق مبادئ ما كانت لتكون له ، أو ما كان أن يكون أهلا لهذه المبادئ لولا مخالطته لهذه المجالس الأدبية⁶.

هكذا إذن كان للعصر و الظّروف و الحرّية و الرّمن و رفقاء السوء أن تنشئ خلقا معوجا غير الذي ابتغاه الخالق عز و جل في عباده ، فهذه الأسباب كلها كانت كافية لأن تصنع من الحسن رجلا عربيدا ، على غير ما كانت عليه نشأته من طفل بريء متفتّح بصير ، قويّ العلم و المعرفة في أمور الدين.

كل هذه الأسباب و جهت له سهامها الطاعنة ، حتى تغرس فيه شيئا يذمّه ، فتخبّط الحسن فيها و هو صغير ، ليقوم فينتبئ مساوئها و هو كبير ، و لعل السبب القاهر وراء اعوجاج أبي نواس هو "اليتيم" ،

1 - ديوان أبي نواس ، ص 57.

2 - زين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي و الأندلسي ، ص 196.

3 - يراجع: ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص (ك).

4 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

5 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

6 - يراجع: ديوان أبي نواس ، ص (ك.ل).

لكن هناك أطفال فقدوا الأهل و عاشوا أيتاما و كبروا على أخلاق حميدة ، فقهروا يتمهم بوردة السمعة الطيبة ، لكنّ أبا نواس لم يعيش يتيما فقط ، و إنّما عاش في وسط يجعل من الأيتام طعمة للفحش و القسوة و العباثة و اللأمبالاة ، هذا الوسط ضمّ من اللّهُو و المجون الشيء الكثير و هذا يستلزم كثرة الفاعلين و الملبّين لهذا اللّهُو أكثر ، و الملبّي لنداء الفاحشة يعيش رذيلًا ، و الرذيل لا يحب أن يبقى وحيدا ، و إنّما يسعى لجلب و إشراك معه آخرون ، فأولئك هم أصحاب السوء ، و هذا ما حدث مع أبي نواس حتى غدت عصبته تسمّى عصابة المجان ، فمن هذا المنطلق نستنتج أنّ عاملا "اليتم و العصر الماجن" هما من غرسا شوكة اعوجاج أبي نواس.

شعره:

لقد اكتسح أبو نواس عالم الشعر الكبير ، فجال بين أطرافه و تعمّق في محتوياته ، و هو في كلّ ذلك لا يخرج عن مقتضيات عصره ، أو بالأحرى فإنّ شعره عكس ملامح شخصيته و مجتمعه ، و بدأ فقد احتل منزلة هامة بين شعراء عصره ، و لم ينله أبو نواس عن ميراث ، و إنّما ترعرع بين أحضانه ، إضافة إلى موهبته الخلّاقة لنيل ذلك ، فقد نما هذا الشاعر و هو يتلاعب بالشعر ، كما تلعب الصبيّة بالدمى ، إذ كان متمكنا منه و مقتدرا ، فإذا كان هذا نتيجة موهبته و قدرته ، فإن ذلك لا يمثل إلا جزءا من المنة و إنّما الباعث الحقيقي وراء ذلك ينصبّ على مؤثرات جليلة ساهمت هي الأخرى في تكوينه ، فقد قارع أبو نواس أصحاب الكلمة فنال منهم و تعلّم عنهم ، و نادى الخلائف فغرسوا فيه العادة الشعريّة ، و تقلّد هو الآخر زمامها ، فكان له أن يعشق هذه العادة ، و يتلّين لسانه على كلماتها ، و تتفجر طاقاته فيها.

و المعروف عن أبي نواس أنّه نظّم شعره في شتى موضوعات الشعر ، و يرى ابن قتيبة : " أن شعره عشرة أنواع ، و أنّه يجيد في العشرة ، و يرى أنّه من الطبقة الأولى من المولّدين "1. فما يلاحظ من هذا القول على أنّ أبا نواس فنّان مرهف الحسّ ، ساطع الكلمة في مجال الشعر ، فالشعر هو الذي يأتي إلى أبي نواس ، و ليس أبو نواس هو من يذهب إليه ، فالشعر عنده مضغّة لديه يتلاعب بها في لسانه كيفما يشاء ، و قد مزج أبو نواس في هذه الموضوعات الشعرية بين جدّه و هزله ، و هذا راجع إلى نفسيته المرحلة التوافق لنييل القلوب ، و كسب المبتغى و إلى مدى سماحة نفسه التي ألقت الغير.

و نجد من أهم أغراضه الشعرية التي نتخذها للدراسة حسب ما يلائم بحثنا هذا ، أربعة أغراض و يأتي في مقدمتها:

أ- الخمريات:

* الخمر – كمشروب - كانت له الغلبة عند أبي نواس ، و هو المولع باحتسائها.
* الخمر – كصفة - كانت هي الأساس عند أبي نواس ، و ذلك إدعانا منه لأنّ طبيعة العصر هي التي افترضتها ، كيف لا و أنّ هذا المحيط قد شهد من التمازج الحضاري ما يكفي و الثقافة عرفت على أوجّها مع الفرس في العصر العباسي ، و هذا دليل على أنّ العصور السابقة منحنطة ثقافيا في نظرهم ، فبديهي أنّ يفرضوا ثقافتهم الجديدة و نظامهم ، و يدعون إلى نيل كل ما هو قديم و من ثمة يستجيب لذلك كل ما هو فارسي ، أو من يحمل بذرة للفرس ، و هذا ما فعله الشاعر أبو نواس ، فكانت من بين الأشياء الجديدة المفترضة في هذا العصر ، و المنطوية تحت عنوان "ثقافة الفرس" هي "الخمر" ، فأجاد فيها أبو نواس ، و أطال في وصفها و نعتها ، و فيها أظهر أكثر تهتكه و مجونه ، فقد قال الدكتور "طه حسين" : " أبو نواس زعيم هذا الفن "2.

و جاء هذا من خلال موازنته بين خمر أبي نواس و خمر الشعراء القدامى ، فأبو نواس تجرّعها كأسا كأسا ، و وصفها قطرة قطرة ، و تغنّاهم مرة تلوى الأخرى ، فقد صاحبها مصاحبة الذات لذاته ، فقد قال الدكتور "طه حسين" : " إن أبا نواس كان يحب الخمر حبّا ربّما كان أشبه بالدين ، كان يعبدها و يقدّسها تقديسا "3.

إذ شكلت الخمر عند أبي نواس منزلة التّقدّيس ، فإذا كان المسلم يصلّي لله عز و جل ، فإن أبا نواس الماجن يصلّي للخمر ، و يثني عليها ، و هذا ما نلاحظه في هذا البيت يقول:

1 - زين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي و الأندلسي ، ص 199.
2 - طه حسين ، حديث الأربعاء ، مج2 ، ط2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1994 ، ص 403.
3 - المرجع نفسه ، ص 406.

أثن على الخمر بالأيها* وسمّها أحسنَ أسمائها¹.

فالمأمل في هذا البيت يلمح مدى عبادة أبو نواس للخمرة ، و هو في ذلك يمثّل الشخص العربي الخارج عن ملّة الدّين ، و المتمعّن في هذا البيت أيضا يلحظ أن فيه اقتباس من القرآن الكريم ، و هو في عجز البيت ، إذ يقول تعالى : " و لله الأسماءُ الحسنى فادعوهُ بها " ² ، فأبو نواس يناقض القرآن في عبادته الخمر ، و مع ذلك يقتبس منه ، و يوظّف كلماته من معانيه ، و هذا كله راجع إلى ثقافته الدينية في نشأته ، و هذه التنشئة الدينية تتعارض مع رجولته المستهترّة الفاجرة ، ثم إنّ اقتباس معاني القرآن الكريم و توظيفها في شعره يدل على إقرار منه في نفسيته على أن هناك إله خالق يعبدّه الصالحون القانتون ، يفوق عشق هؤلاء له عشق أبي نواس للخمر ، و مع ذلك فهو يكفر به و يؤمن بالخمر الصامته عند الكيّسون ، الناطقة عنده فقط.

و الخمرّة جعلت أبا نواس وحيدا بين شعراء عصره ، لا عن شجار معهم ، و لا عن انزواء منه عنهم ، و إنما لكلمته الكبرى فيها ، و لم يكن هذا الغرض غالب عنده ، و إنّما يكون أبو نواس بهذا الغرض أقوى شعراء قبله و أهل زمانه ، فكان شربه لها موازيا لوصفه إيّاها ، إذ مدحها و أثنى عليها كما أنه لم يفته تميّزه بين أنواع الخمر و أدواقها³.

و بما أن أبا نواس في الخمر هو غير السابقين عليه فيها ، إذ كان الجاهليون - بالإنصاف عليهم - وصفوا الخمرّة ، غير أن وصفهم لها يغلب عليه طابع التعميم لا التخصيص ، فهم إذا وصفوها ، يصفون لونها و أقداحها ، هادفين من وراء وصفهم هذا إلى الفخر و التمدّح بالمحاسن ، و لم يحظ وصف الخمر عندهم كفن مستقل كما كان للمدح و الهجاء و غيرها ، و قد نقصت حدّة الخمر و أغفل عنها الناس عامّة ، و الشعراء خاصّة بمجيء الإسلام الذي حرّم هذه الظاهرة و نبذها ، و فرض أشياء جديدة شغلت الناس بها بدل الخمر ، و بهذا يعدّ الشعر استنطاقا لها.

و عرفت الخمرّة نوعا من الركود طوال ذلك إلى إن أشرقت لها شمس القرن الثاني للهجرة (ق2هـ) ، الذي انقلبت فيه موازين القوى الثقافية و السياسية ، حيث ظهر المجون و شاع صيته إلى الخلفاء ، ثم انقلبت الخلافة من الشام إلى العراق المتحضرة بثقافة الفرس ، و من ثمة كان لأبي نواس أن يكون زعيم هذا الفن باستحقاق ، و له الجدارة فيه عن سابقه من الشعراء ، و ذلك كلّه لأنّه أحبّ الخمرّة و قدسها ، و أعطاها الروح التي تلائم روحه⁴.

ب- الغزل:

ينقسم الغزل عند أبي نواس إلى شطرين:

• الأول: غزله بالنساء.

• الثاني: غزله بالعلمان.

و قد برع أبو نواس في الثاني إلى حدّ النخاع ، فأطال و أجاد فيه على حساب الأول ، و يلتبس المتصفّح له (غزله بالعلمان) على عمق صدق أبي نواس ، بخلاف غزله بالنساء الذي طلي بوجه حسن لا يعكس إطلاقا ما في جوهره المخادع لهّن ، و من النساء اللواتي تغزّل بهن لا يخرجن عن طائفة الجوّاري و الإماء ، إذ أغفل عن المحصنات و الحرائر ، و من الجوّاري التي تغزّل بهن هي الجارية "جنان" التي اشتهر شعره الغزلي بها⁵ ، و قد وقع أبو نواس في حبّها ، و فيها نجد أبياتا عنها ، يقول أبو نواس:

مُبَاحَةٌ سَاخَةُ الْقُلُوبِ لَهُ يَأْخُذُ مِنْهَا أَطَايِبَ النَّمْرِ⁶.

لكنّ أبا نواس لقي معارضة شديدة من طرف "جنان" لأجل سبب واحد و وحيد و أعظم و هو "مجونته" و "استهتاره" ، فقد نال منها السبّ و الشتم ، و مع ذلك لم يبالي بهذا الإعراض منها ، و ظلّ يقابل ذلك الشتم و كأنه الكلام المعسول الذي يرضي فؤاده المشغوف حبّا بها ، و هو في ذلك يقول:

و قُولِي مَا بَدَأَ لِكَ أَنْ تَقُولِي فَمَاذَا كَلَّمَهُ إِلَّا لِحْيِي

* - التّع.

1 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 13.

2 - سورة الأعراف ، الآية 180.

3 - يراجع: ديوان أبي نواس ، ص (ف.ص).

4 - يراجع: إبراهيم علي أبو الحشب ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، ص 290 - 291.

5 - يراجع: زين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي و الأندلسي ، ص 202.

6 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 240.

فُصَّارِكِ الرَّجُوعِ إِلَى وَصَالِي فما ترجينَ من تعذيب قلبي؟¹
 و في هذه الأبيات يبدو أبو نواس كما لو كان محبا صادقا ، إذ لا يوجد دليل قاطع على مصداقية
 حبه لها ، و ذلك باعتبار طبيعة نفسيته المستهتره ، فأبو نواس أمر حبه واحد من اثنين:
 • إما متظاهرا بالحب و بالتالي مخادعا لما في باطنه الذي لا يتعدى عتبة إشباع اللذة.
 • و إما محبا حقا.

لكن الحب الحقيقي مكمنه القلب ، و معيره اللسان الصادق ، و هذا ما لم يكن عند أبي نواس
 بالدرجة القصوى² ، فالمحب يتمنى الخير و السلامة و العيش الطويل للمحبوب و أهله ، و ليس طلب
 الفجيرة و الوجيعه ، و هذا ما نلمحه في أبيات له ، التي يقول فيها و هو متمني المأساة – إن صح التعبير
 – لمحوبته "جنان":

يا قَمْرًا أبرزَهُ مَأْتَمٌ يَنْدَبُ شَجْوًا بَيْنَ أترابِ
 لازل موتًا دأبُ أحبابه و لم تزل رؤيته دأبي³.

فحب أبي نواس لهذه المرأة مكمن في إشباع لذته ، فهو يتمنى الموت لأحبائها كي تظهر "جنان"
 متوجعة ، متألمة ، فيحسن منظرها بهذا الوجد عنده ، و هو على أحرّ الرغبة في رؤيتها على تلك الحال ،
 و هذا الأمر ليس من شيم المحبوب الصادق ، و منه فحب أبي نواس هو حب منفعي.
 و تمتزج أصباغ المعاني و الكلمات في غزلياته ، حتى لكان تظهر كفسيفساء لفظية و معنوية ،
 فهو يبتكر الألفاظ و يستجير المعاني القديمة تارة ، و يغلفها بأحاسيسه الفكاهية و الدعابية تارة أخرى ،
 و في ذلك يقول الدكتور "شوقي ضيف" : " إنه يعرف كيف ينوع في معانيه ، و يستمد من أوعية القديم
 في الحنين و الصدّ و الإعراض و الدلال ، ما تلالأ فيه خواطره ، و تتألق فيه أحاسيسه ، و كيف ينحو في
 غزله منحى سهلا ، حتى لتصبح بعض غزلياته أسلس على اللسان من الماء العذب "⁴.

و بهذا التفنن يحسب القارئ غير المتعود على قراءات أشعار أبي نواس أنّ غزله صادر عن
 تجربة حقيقية ، غير أن المطلع على سيرته (أبي نواس) و من ثمة حياته مع الخمرة يدرك أن غزله امتداد
 لها ، فلا ينطق بالأول إلا بوحى الثاني ، و هكذا فإنّ غزلياته تتنافى مع الصدق.

كما يلاحظ على غزله بالجوارح أنّه لا يرتفع فيها عن مستوى ثقافتهم ، إذ ينزل بألفاظه إلى اللغة
 الدارجة ، حتى ينسئى لهنّ فهم عليه ما يقول ، و قد يكون ذلك حيلة من أجل كسب قلوبهنّ و التحايل
 عليهنّ ، و قد يقع أغلبهنّ فريسة له من خلال هذه اللغة التي يتأثرن بها ، خاصة و أنهنّ على يقين أنّ هذه
 الأشعار هي الكلمة الفاصلة في سوقهنّ و رواج بضاعتهم⁵ ، و هو القائل في الجوارح باللغة العادية
 اليومية:

رَسُولِي قَالَ أَوْصَلْتُ الْكِبْرَ تَابًا و لكن ليس يعطونا الجواب⁶.

فلربما يشكو أبو نواس تمنع الجوارح عنه ، بالرغم من أنّ لغته تخضع للسلاسة و العذوبة
 مما لا يشك أحد من عدم فهم الجوارح عنه ، و هكذا فإنّ غزل أبي نواس في النساء عامة ، و بخاصة
 الجوارح لم يكن جادا فيه ، فهو معظمه كذب ملفوف في ثوب الصدق ، و قد اختار هذه الفئة الضعيفة من
 أجل اللهو و العبث ، فهو إنسان ماجن ، و ما المنتظر من الإنسان الماجن سوى الرذيلة و التهكم ، و إذا
 كان القائد معوجا فمن واجب الرعية الطاعة ، و نخص بالذكر هنا أولئك الرعايا الذين لا يملكون العيون
 البصيرة ، و هذا يؤدي بهم إلى أن يصبحوا مثله ، و هو المتحكّم فيهم ، فهكذا كان أبو نواس إذ أعطى
 سلطة القيادة للخمرة الفاحشة و من ثمة أعماله كلّها مسؤولة عنهم هي ، و جعل من الخمرة شعرا و ديوانا
 طبقا لشغفه بها ، و بذأ فشعره الغزلي متحرر من ربة المصداقية مادامت الخمرة هي السيد عنده ، و
 نظرا لذلك فقد جعلت من غزله يغلب عليه طابع الهزل لا الجد ، و ربما هذا الجد الضئيل في شعره لو ما
 دعت إليه ظروف الحياة بشئى مجالاتها لما كان أن يلّم به ، يقول الدكتور "طه حسين": " شخصية

1 - المصدر نفسه ، ص 241.

2 - يراجع: كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي و الأندلسي ، ص 203.

3 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 242.

4 - شوقي ضيف ، الفن و مذهب في الشعر العربي ، ص 161.

5 - يراجع: ديوان أبي نواس ، ص (خ).

6 - المصدر نفسه ، ص 288.

أبي نواس شخصية شاعر ماجن قبل كل شيء و بعد كل شيء ، و نحسب أن هذا الرجل لو خلى و طبعه و لم تضطره الظروف السياسية و الفنيّة و المعاشية إلى أن يصطنع الجد من حين إلى حين لكان شعره كله هزلا و مجونا¹.

فالدكتور "طه حسين" يؤكد بمجونية شخصية أبي نواس ، و جدّه في الشّعْر مرتبط بمقررات الحياة و افتراضاتها ، و لو انقطعا هذان الشرطان لطل و أجال في هزله و مجونه ، و هكذا فإن هزله و مجونه كائنان في طبعه ، و لا يستطيع التّخلي عنهما ، و إنّما يستطيع أن يهدّب نفسه من ذلك لمغالطة أحكام العصر.

يقول الدكتور "طه حسين" : " و ما رأيك في رجل لم ينظر في يوم من الأيام إلى الحياة إلا من حيث هي سبيل اللذة ، و وسيلة من وسائل اللّهُو و لم يجد إلا ليستعين بجدّه على الهزل² ". فأبو نواس لم تكن له الحياة إلا تحت إشراقه شمس سماء اللذة.

ج- المديح:

عالم أبو نواس غرض المدح بحكمة و فطنة ، و قد نظّم هذا الغرض مستهدفا من ورائه إلى الكسب المادّي و الرّوحي ، و من أشهر ممدوحيه "الخصيب" والي مصر ، و إليه تنتسب مدينة المينا في صعيد مصر ، و كان اسمها حين أنشأها "منية الخصيب"³ ، و نجد من أبياته في ذلك قوله:

أنت الخصيب و هذه مصرُ فتدقّقا فكلكما بحرُ
النَّيْلُ يُعِشُ ماؤُهُ مصرًا و نَدَاكَ يُعِشُ أهْلُهُ الغَمْرُ⁴.

فأبو نواس يتودد من خلال البيتين من أجل كسب قلب الخصيب و يده ، و قد ارتفع بمدائحه لممدوحيه ، و بلغ في ذلك إلى درجة الإسراف و لا غرابة في ذلك من نفس طمّاعة تمشي بأمر لذتها. و في غرض المدح نجد أبا نواس لا يتكاسل في الإنعراج إلى القديم و اقتطاف بعض سمات شعراء المديح القدامى ، فقد وقف على الدّيار و شكوا الألم و الحزن و اللّوعة ، و لا ننسى أن أبا نواس في ذلك مبالغ إلى حد كبير ، كما لا نغفل أيضا من عودة أبي نواس للقديم فلربّما كان من أجل الشّماتة و السّخرية.

و من ناحية مصداقيته في المدح ، فإذا نفيناها عنه كاملة ، فنكون قد أجحفنا في حقه ، إذ أنّ الرجل سلطانه الوحيد لذّته ، و اللّذة طرق إشباعها متعددة ، و المدح هو أحد طرائقها ، و من ثمة لذّته تقتض أن يكون قلبه و لسانه في صف واحد ، فالممدوح يقرأ سمات الإعجاب به من خلال ملامح المادح و كذا قوة تأثيره ، فإن شاهد الممدوح المادح على تلك الحال عندها يقربه إليه و يتّخذة خليلا ، و لربّما وريثا لماله ، فأبو نواس كان صادقا في مدحه في بعض الأحيان ، لأن الغاية تبرّر الوسيلة ، فغاية أبو نواس النيل من أجل الإشباع ، و من ثمة الوسيلة تكون نابعة من القلب الشّهواني.

يقول الدكتور "طه حسين" : " إن أبا نواس كان صادق اللّهجة حين يمدح هؤلاء الناس جميعا ، لأنه كان يحب من يمدح و يدل عليهم ، و يطمع في الخير منهم⁵ ".
فلذّة أبي نواس الطمّاعة في الكسب من الغير جعلته يصدق في مدحه لممدوحيه.

و قد ينقسم مدح أبي نواس إلى درجات ، فمنها:

- مدحه من أجل الكسب ، و ذلك قد يحقق له مبتغاه.
- و منها ما هو مدح للوزراء جعله كسفينة عبور من أجل مدح الخمر و شربها.
- و منها ما هو مدح اضطراري ، كان نتيجة خوفه منهم ، و في ذلك له أن يفعل هذا الفعل ، فهم يدركون أنه شخص فاسق و ماجن ، و بدأ يخشى العقاب فيتقرّب إليهم بالمدح ، و هذا ما يسمى "بالمدح التّخوّفي" ، و نضرب مثلا على ذلك ، فقد مدح أبو نواس "الرشيد" مدحا مستجديا⁶.

1 - طه حسين ، حديث الأربعاء ، مج2 ، ص 449.

2 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3 - زين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي و الأندلسي ، ص 204.

* - الغامر الكثير.

4 - ديوان أبي نواس ، تح: احمد عبد المجيد الغزالي ، ص 479.

5 - طه حسين ، حديث الأربعاء ، مج2 ، ص 446.

6 - يراجع: إبراهيم علي أبو الحسب ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، ص 290.

و تراوحت مدائح أبي نواس بين الصدق الوجداني و هذا ما قد نجده في مدحه "للأمين" ، و ذلك لأجل شيء واحد و هو أنه كان ينادمه و يتخذة خليلاً له في الشراب ، و بين الدعابة و التظاهر ، و قد خصّ بذلك مجموعة من الشخصيات¹.

و إذا قلنا أن مدح أبي نواس صادق فذلك على سبيل التخصيص لا التعميم ، فإذا نظرنا إلى أنانيته المتغترسة و لذته الكامنة نعتقد أنه صادق ، أما إذا نظرنا إلى مجونه و لهوه و عبثه فنجزم أنه يبتعد عن الصدق بعد السماء عن الأرض ، فمدحه بذلك يجهر به اللسان لا القلب.

و بقدر ما تشبّه مدائحه بمدائح الشعراء القدامى "كالأخطل" و "الفرزدق" ، إلا أنه يراوغهم في هذا الغرض ، باختياره المعنى الوجيه و اللفظ السلس ، غير أنهم يتفوقون عليه من جانب التأثير الوجداني ، إذ أن أبا نواس لم تكن له أي عاطفة صادقة اتجاه الممدوح ، و التي تصنعها (العاطفة) بعض التأثيرات الحقيقية و الشجبة ، و لو كان له ذلك لصافح القلب ، و لأمس الدمع ، و أبكم اللسان من أجل أن يصنع ملحمة في ممدوحه كما فعل سابقه ، و هو في ذلك لا يجاري أصحاب الكلمة الصادقة الحقّة المعجبة بممدوحها ، و إنما يجاري أصحاب اللذات الميالة للشّهوات ، فالشّهوة لا تجعل المرء ينظر بالعين البصيرة ، و إنما تجعل صاحبها ينظر بالعين الضّريرة للأشياء ، فهو لا يرى في ممدوحه على أنه حقّق انتصارات و بطولات ، لأنه يرفض البطولة و الفروسية ، كما أنه لا ينظر إلى عظمة أخلاقه (أخلاق الممدوح) ، فهو ينظر فقط حين يمدح إلى اليد السخية لا النفس الجليلة ، أبو نواس بفكره اللاعقلاني ناقض أصحاب العقول ، و هو في مدحه يختار جانب الجدّ في الكسب و النّيل و لو على سبيل المدح المخادع ، و يتعفّف عن جانب الجدّ في المدح الحقيقي العقلي و الوجداني ، و لربّما عدّت أجمل مدائحه و أفضلها تلك التي وردت في قالب خمرياته و قد اقتصرها على أصحابه و ندائه فيها ، و من ثمة غدا يبرز صفاتهم ، حتى بدا و كأنه ينعت بها الخمرة ، فهو يصفها من خلال الندماء ، فإن - صح التعبير - سمي مجازاً كلياً غرضه الجزء ، فهو مدح الأصحاب و قصد من خلالهم الخمرة².

فمدح أبي نواس هو مدح على سبيل الخمر ، دافعه الغريزة ، و يعتبر مدح قطبي ، لذته هي مركز تنظيمه لهذا الغرض.

د- الهجاء:

هجاء أبي نواس من المستوى الرفيع ، و ذلك يعود أساساً للخمرة التي تجري في عروقه ، و لربّما اختلط دمه بها ، فأبو نواس غلبت عليه الخمرة التي أنفقت له عقله ، فصار ينقب الناس بمنقار النسر ، فقد شكّلت بعض الشخصيات لدى هذا الشاعر و كأنهم غراب ، إذ لم يعد يراهم إلا و هم ملفوفين بلباس أسود ، معنى هذا أنه جرّح فيهم و أزرى بهم و احتقرهم إلى حدّ النخاع ، و في ذلك نجد قوله في "خبز إسماعيل بن سهل":

على خبز إسماعيلٍ واقيةُ البُخلِ فقد حلّ في دار الأمان من الأكل³.

فأبو نواس كثير الإهتمام بشؤون الناس ، و كثير الإلمام بأخبارهم ، لا من أجل التمعّن فيها و حصن الذّات على وقوعها في مثل ما وقعوا فيه ، لا من أجل التسنّر عليهم ، و إنما من أجل إيجاد عيوبهم و نشرها على العامة ، بل أكثر من ذلك ، و إن لم يكن هناك عيب ، فأبو نواس يعمل على خلقه لهم ، فهو يجد لذته حين تفضح سرائر القوم و تهتك الأعراض.

و قد يكون هذا الغرض أكثر رواجاً من أغراضه الأخرى ، باعتبار ولعه بأمور الخلق ، فقد عرف بنظرة ثاقبة على المسخ و بلفظة حادة على التشويه ، و قد يكون حدّ السيف القاطع الذي يضرب الأعناق أخفّ بكثير من ألفاظه الهجائية⁴ ، و قد جمع أبو نواس كذلك بين الجدّ و الهزل في هجائه ، و أطال في ذلك إطالة عظمى ، ملماً بموضوعات الناس الدنيا و القصوى ، فمارس هذا الغرض ممارسة الجندي القائد ، و لا عجب من رجل ألف أنواع المنكرات ، و ليّن لسانه و قلبه و عقله على مجاراتها ، فقد خبر أبو نواس الرذيلة و السماتة بالناس و غاص في طبيّاتها ، و بذلك كان له أن يصنع هذا

1 - يراجع: إيليا الحاوي ، شرح ديوان أبي نواس ، ج1 ، دط ، دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب العالمي ، 1987 ، ص 16.

2 - يراجع: المصدر نفسه ، ص 16 - 17.

3 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 515.

4 - يراجع: إيليا الحاوي ، شرح ديوان أبي نواس ، ج1 ، ص 17.

الغرض الموهوب عنده ، و هجاء أبي نواس سليل ، مريز ، لا يرحم من أشار إليه عقله ، فقد أطلق العنان للسانه و جعله يصول و يجول بفاحش القول¹.

و خلاصة القول: أنّ أبا نواس كان فنانا في أغراضه هذه و غيرها ، بقدر ما كان فنانا في حياته ، و جعل نفسه تنمو وفقا لما يمليه عليه لسانه ، تعجرف في شعره كما تعجرف في شخصيته ، فأبو نواس صنع شخصيته طبقا لمقتضيات عصره ، فهو أجاد في هذه الأغراض الأربعة كما أجادت فيه الحياة الفارسية ، حيث أنه تعلم و تتقف كما أرادته أن يكون ، كبر رجلا و شاعرا و فارسا في اللهو ، و مغورا في العبث ، كما كان يراها (الحياة) ، و قد حفظت تلك الحياة له لقب شاعر "الحضارة الفارسية" المليئة بالثقافات الخطيرة ، و على رأسها الخمريات

شعوبيته:

أ- عوامل شعوبيته:

*** ميله للفرس:**

المعروف عن أبي نواس أنه يتصل بنسبه إلى الفرس من جهة الأم ، إذ أن أمه فارسية²، و من ثمة يعدّ الفرس أحواله ، و لا غرابة أن يحبهم ، غير أنّ وجه العجب يكمن في انحياز الكلي للفرس و إغفاله عن العرب ، و كأنّ أباه فارسي أيضا ، و هذا إححاف من أبي نواس لأصله ، فوالد أبي نواس عربي ، و مع ذلك كانت الفرس قريبة إلى قلبه ، فهو بفعله هذا يبدو و كأنه يتنكر من أبيه ، و يتبرأ منه ، و هذا ربّما يعود لسبب اليتيم ، حيث فقد أبو نواس والده في سن مبكرة ، فلم يتعلّق به كثيرا ، و إنّما تعلق بأمه التي تكفلت بتربيته ، و مع هذا لا يعد تبريرا لانحياز أبي نواس للفرس ، فالفرد يتصل بأبيه من جهة النسب لا بأمه ، إذ الإبن يحمل لقب أبيه وليس لقب أمه ، فيبقى الفرد ذو أصل أبوي ، و لربّما يعود انحياز أبو نواس للفرس لأجل شيء آخر و هذا ما نلاحظه في العامل الثاني و يتمثل في:

*** تأثره بمظاهر الحضارة الجديدة و معالمها³:**

إن المتأمل في سيرة أبي نواس يلمح أنّ هذا العامل أكبر و أبلغ من العامل الأول ، و هو السبيل إلى شعوبيته ، إذ تدخل هنا عدّة اعتبارات و دوافع جعلته ينبهر بهذه الحضارة الجديدة ، فموت والده و نشأته بين أحضانه الفارسية ، ثم افتراقه مع أمه بعد زواجها ثانية ، و احتكاكه بالخلانّ و الشعراء و الأصحاب على اختلاف سيرهم ، و منهم الصالح و الطالح ، و المعروف عن أبي نواس أنه خالط الطالّ أكثر من الصالح ، و على رأسهم "والبة بن الحباب" ، و ما كان في هذا الأخير من تعنّت و مجون ، كل هذا جعل نفسيته باردة من جهة الأخلاق ، تواقّة للهو ، و ضرب الدّنيا- إن صحّ التعبير - عرض الحائط ، فلم يعد للأخرة أيّ ذكرى عنده ، أو بالأحرى أغفل عنها ، فشاع في نفسيته إشباع اللذة ، و هذه الأخيرة قبّلتها الحضارة الفارسية الجديدة المعولمة ، القائمة على جعل كل الناس تحت نمطها ، و بما أن أبا نواس يحيا فيه شعور اللهو ، و تحقيق رغباته ، فوجد في هذه الحضارة الجديدة ما لم يجده عند العرب ، فأبو نواس صقلت رغبته و شهوته حياة العرب القائمة على ما يستقيم به العبد لا على ما يكسر نفسه و عوده ، و أبو نواس رجل شهواني ، لم يرض بما يخاطب عقله ، و إنما رضي فقط بما يخاطب قلبه المقتون ، و الحياة الفارسية تستجيب و تتجاوب مع طموحات أبي نواس ، فكان بهذا الأخير أن يؤثّرها و يفضّلها على حياة العرب.

و بما أنه عرفت الشعوبية بتلك الفئة التي تفضّل كل ما هو فارسي و تمجّده على غيره ، فقد رحّب بها أبا نواس و تفنّن فيها ، كيف لا و قد رأى في الحضارة الفارسية المأجنة ما قمعته له الحياة العربية و هو الإنسان العربي ، فقد قبّل الفرس من الرأس و ألبسه التاج ، و عانقه على حساب العرب ، و من هنا بدت شعوبيته جليّة ، حيث أنه خطا فيها ذراعا و رجلا ، فالذراع صافح به الفارسي ، و الرّجل داس به حياة العربي ، فأهانته و احتقره.

ب- ملامح شعوبيته:

*** الثورة على الشعر القديم:**

1 - يراجع: إبراهيم علي أبو الخشب ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، ص 293.

2 - مصطفى بيطام ، مظاهر المجتمع و ملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول (132 - 232هـ) ، دط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ، 1995 ، ص 373.

3 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

أعلن أبو نواس - إن صح التعبير - حرباً لا هوادة فيها ضدّ شعراء العرب القدامى ، فقد كان هؤلاء يستهلّون قصائدهم ببيكاء الأطلال و وصف الرّحلة و الراحلة ، و غيرها من الأمور التي يعرف بها الشاعر الجاهلي خصوصاً ، فهذه الأمور لم يكن لها شأن عند أبي نواس ، و لم تلق اهتمامه ، أو بالأحرى اقشعّر فكره و حسّه منها و عمل على تهميشها ، إذ رأى أن العصر تطوّر ، و بالتالي لا بدّ من التطوّر في الشّعْر ، فنادى بالمقدمة الخمرية على حساب المقدمة الطللية ، و بذلك ألبس الشّعْر ثوباً جديداً ، فقد استهلّ قصائده بالتغني على الخمرة معاكساً العرب الجامدين على بكاء الطلل¹.

فأبو نواس جعل العصر هو الذي يجزّ الشعر ، فلم يترك الشعر في حفرة ، و العصر الحضاري المولوع بالخمرة في سكة حديدية محكمة ، فقطار العصر توقّف في محطة أبي نواس و ركب الشعر ، فصنع منهما توأماً لروحه.

أبو نواس رأى في الخمرة تقدّماً للعصر و الشّعْر ، و من ثمة فهي معطى حضاري ، فعامّة الناس تحضّروا بها ، و منه فلا خطر عليه من المتشددين في الدين ، فقد رأى أصحاب السلطة عليهم يشربونها ، و يشجعون على شربها و على رأسهم "الأمين" و "المأمون" ، فلو كان هؤلاء الخلفاء محاربين للخمرة عندها يسهل على "المعتزلة" مثلاً و هي - فئة دين متشددة - ردع العوام من الناس ، لكن إذا خرب السلطان خربت الرعيّة ، فأبو نواس درى بذلك ، فزال خوفه ، و بالتالي احتكم لأمر الخمرة ، و جعلها تسيرها كما رغبت دوامة العصر ، و إذا عدّ شرب الخمر شعوبية ، فأبو نواس شعوبي بالنظر إلى تقديسه لها².

* الثورة على بدوية الأعراب:

نظر أبو نواس إلى حياة العرب ، فوجد في أسلوب معيشتهم مأساة أكثر من ملهاة ، فالعرب قوم بسطاء ، يعملون لكي لا يمدّون يدهم للسؤال ، و يقتنون لا ليشبعوا ، و إنّما لكي يحيوا و يتدبّروا في الكون ، و لم يكن لهم عند أبي نواس أيّة حضارة و مال و جاه ، فهم يشكّلون له بدوا رعاة ، لا يفهمون إلا لغة البداوة ، و أبو نواس متأثر بالحضارة الفارسية اللينة ، الزاخرة بالرفاهية ، عكس حياة الأعراب التي تتسم بالخشونة ، كما أن تفكيرهم يعزو تماماً إلى ما تنادي به هذه الحضارة الجديدة و إلى ما يبتغيه أبو نواس ، و بدأ فإن هذه الحضارة قسّمت الناس إلى شطرين:

- شطر العرب المحافظين على سلوكاتهم الدينية و الأخلاقية.

- و شطر المنبهرين بهذه الحياة الحضارية ، فقّلّوها بكل ما أتت به.

و يعد أبو نواس واحد من أولئك المغرمين بهذه الحضارة ، و من ثمة شكّل العرب بالنسبة إليه أعداءً له ، و أصرّ بدوره على تحديهم ، فقط لأنهم عرباً بدواً و هو فارسي حضاري ، و إذا اعتبر ذلك شعوبية ، فأبو نواس أكبر شعوبي في العالمين العربي و الإسلامي³.

و بهذا كانت شعوبيته ، حيث ناقض العرب و حياتهم ، و اتّخذ من الحضارة الفارسية ملاذاً استمدت منها لذّته ، و هو الرجل القائم على حبّ الذات ، كما أنه الرجل الذي يحبس تفكيره في ما يجلب سعادته و راحتته ، فشعار أبي نواس الشعوبي تمثّل في "إشباع الذات" و هذا الإشباع لا يحصل إلا عند "الفرس" ، و من ثمة غدا يفضل الفارسي على العربي ، يعلي من شأن الخمرة على الطلل ، و يرحب بالعبث و اللّهو على الإنكماش و التستّر و التخلّق.

1 - يراجع: خليل شرف الدين ، أبو نواس ، الموسوعة الأدبية الميسرة 1 ، ص 175.

2 - يراجع: المرجع نفسه ، ص 176.

3 - يراجع: خليل شرف الدين ، أبو نواس ، الموسوعة الأدبية الميسرة 1 ، ص 176.

تجليات الشعوبية:

أ- في شعره:

1- في غرض الخمر:

باتت الخمرة الفارسية هي سلطان أبي نواس ، فقد تغنى بها و وصفها وصفا يكافئ شربه لها ، فأضحت الحضارة الفارسية فكرة النَّاضج ، حيث أنه تأثر بها و هذا ما نلمحه حين يصف أكواب الخمر و ما فيها من رسوم و زخارف فارسية¹ ، إذ يقول:

تدار علينا الرَّاح في عسجدية*
قراراتها كسرى و في جنباتها
فللخمر ما زُرْتُ عليه جيوؤها
و للماء ما دارت عليه القلانس**2.

نلمح في هذه الأبيات جنون أبي نواس بالخمرة الفارسية ، فهو يصفها بإحكام ، و لإخراجها في أبيه حلة مزج بين العالمين العربي و الفارسي ، فهو أخذ بعض الألفاظ البدوية عن الأعراب ، و استعان بالأوصاف الحسية من الحياة الفارسية المتحضرة.

و إذا بحثنا عن الشعوبية كمظهر في هذه الأبيات حسب معناها الحقيقي و هو الإعلاء من شأن الفرس ، و الحط من شأن العرب ، فإننا نخرج منها بالدرجة الصفر ، إذ لا يوجد لأثر هذه النزعة هنا ، فأبو نواس لم يفرق في وصفه للخمرة بين العرب و الفرس ، إذ استمد ألفاظه من العرب ، و استمد معانيه من الحضارة الفارسية ، فكل منهما له ميزة خاصة تجعله يتميز بها عن الآخر ، لكن التدقيق في جوهر الشعوبية عند أبي نواس نجد أن له وخزات تجاه العرب ، حيث إن أبو نواس اختار من العرب اللفظ لا المعنى ، و هو في ذلك يرفض معاني العرب القدامى و أوصافهم للأشياء باعتبار بداوتهم ، و فضل الوصف المادي المتحضر الذي يكتنف الحضارة الفارسية ، و كأن أبو نواس يحدث تمييزا في قلبه و شعره من جهة البداوة و الحضارة ، و هو المنادي بالخمرة ، فأكد أنه ينحاز إلى الأوصاف التي تجعلها في أبيه حلة و أجمل من نوقها ، و قد وجد ذلك عند الفرس المتحضرة ، فميله إلى الفرس من جهة الخمرة أقرب إلى الصحة.

و قد كان أبو نواس نائرا على العرب من عدة جوانب هي:

* الثورة على الظلم:

و في ذلك نجد له أبياتا يقول فيها:

عاج الشقي على دار يسائلها
لا يرقئ الله عيني من بكى حجرا و لا شفى وجد من يصبو إلى وند
قالوا ذكرت ديار الحي من أسد لا در ترك قل لي من بنو أسد
و من تميم و من قيس و إخوانهم
ليس الأعراب عند الله من أحد³.

يبدو أبو نواس من خلال هذه الأبيات و كأنه يجهر بشعوبيته ، استهل أبياته بالسخرية على العرب الذين يستهلون قصائدهم بمقدمات طللية ، فهو يتحداهم و يصد الباب في وجوههم ، إذ يعاكسهم في ذلك ، و ينادي بالمقدمة الخمرية ، و لا عجب من ذلك و هو مفتون بالخمرة ، و يتضح تجريحه للعرب ساطعا ، فهو يحتقرهم لميزتهم تلك ، و يراه عيبا عليهم لا بد من التخلص منه و الإحتكام إلى المقدمة الخمرية التي تقتضيها متطلبات العصر ، و لا شك في أن استهلال العرب قصائدهم بالظلم أمر شغل باله ، و أنهك فؤاده ، حتى وصل به الأمر إلى الدعاء عليهم.

1 - حامد حنفي داود ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، ص 24.

* - من العسجد و هو الذهب.

** - أغطية الرأس ، الشائعة في ذلك الحين.

2 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 37.

3 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 46.

فأبو نواس يسخر من أولئك الذين حبسوا عقولهم في القديم ، فهو يرى في ذلك أن يذهب الماضي مع الماضي ، و يعيش الحاضر مع الحاضر ، إذ الشاعر الحقيقي عند أبي نواس هو الذي يعيش مع الزمن ، و خاصة الزمن المتحضر الذي يعيشه هو ، و المتمثل في الحضارة الفارسية .
و نجد من أبيات أشعاره في الخمر ما يمثل حقه على العرب و سماتهم في الشعر ، و هذا لا يخرج فيه عن شعوبيته¹ ، إذ يثور على العرب من زاوية أخرى و هي:

* الثورة على بكاء الحبيبة:

و في ذلك يقول أبو نواس:

لا تبك ليلى و لا تطرب إلى هند و اشرب على الورد من حمراء كالورد².
يظهر أبو نواس من خلال هذا البيت على أوج السخرية على العرب ، و هو يواصل تهجمهم عنهم بالبكاء على الحبيبة و استهلال قصائدهم بها ، و كأنه يفرض الخمر كشراب ، و يفرضها كمقدمة استهلاكية للأشعار و القصائد ، فأبو نواس انتقد العرب بشدة من هذين الزاويتين (بكائهم على الأطلال و الحبيبة) ، مما يعني أن الخمر وصية تركها الفرس له ، و هو يورثها للشعراء عامة ، و العرب خاصة ، و هكذا فإن أبا نواس أثر المقدمة الخمرية على الطللية ، و هذه الأخيرة من سمات الشعراء العرب ، و يظهر سخطه للعرب في ذلك ، و انحيازه للخمرة الفارسية ، مما يدل على تفضيله للفرس على حساب العرب ، و هذا يعد شعوبية منه ، حيث تبقى الخمرة هي العقل الصافي عنده ، و هي الراحة النفسية له ، و منه المقدمة الخمرية هي شهرته ، و بدأ فالخمرة هي عقرب الساعة الذي يدور ، و هي الفاصل بين الفرس و العرب.

و لم يتوقف أبو نواس عند حدود التهجم و السخرية من أطلال شعراء العرب ، بل خصص فيهم شعراء نحر أعناق شعرهم بحد لسانه الذي فاق جرح السيف ، و هذا ما يعني أن ثورته مالت من جانب تعميم العيب على شعراء العرب إلى جانب تخصيص شعراء العيب و في ذلك نجد:

* ثورته على الشاعر العربي "امرئ القيس":

و من قوله:

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمِ دَرَسٍ* واقفا ما ضَرَّ لو كان جَلَسٌ³.

و قوله هذا يهدف إلى تشويه شعر العرب ، و العرب بدورهم يعرفون بالشعر خاصة ، أو بالأحرى سوقهم التجاري هو الشعر ، فإذا شوّه عليهم هذا الأخير ، فإن هذا التشويه و السخرية ينتقل من الجزء إلى الكل ، ينتقل من الرأس ليشمل سائر الجسد ، فرأسهم هو الشعر ، و أبو نواس كان قوله هذا تلميحا معطرا بالسخرية على قول الشاعر العربي القديم "امرئ القيس":

قَفَا نَبِكُ مِنْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَ مَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللُّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمِلٍ⁴.

فإذا قارنا بين نماذج الشعارين نجد أبا نواس من زمن متحضر ، ضاحك تبتسم فيه الخمرة الفارسية ، و امرؤ القيس من زمن ماض ، متحجر ، و كلا الشعارين لهما وزنهما الثقيل ، فأبو نواس سيّد المحدثين في الخمر ، و امرئ القيس سيّد القدامى في الطلل ، لكن رؤية أبي نواس في امرئ القيس هي رؤية عقيمة تنطوي عليها الشحنة ، فهو يرى أن الشعر الرّاقى بالتغنّي على الخمرة ، و ليس ذلك الذي يبكي الحبيبة و يموت من أجلها ، فأبو نواس رجل مبتسم للحياة ، ضاحك لها ، لا يبالي بما تصنع فيه ، و إنّما يبالي فقط بما يصنع فيها من خلال إغرائها بالخمرة ، فهو لا يهتم إن ماتت الأحبة أم عاشوا ، و إنّما ما يهيمه هو موت حياته بدون خمر ، و حياته في شلال من الخمر ، و بدأ فأبو نواس يتهم على طلل امرئ القيس و في ذلك تهجم على الشعراء القدامى ، و هذا يعد غاية الشعوبية.

و قد واصل أبو نواس في تمرّده على القديم و رفض أساليبه في العشر ، حتى غدا متطرّفا عنه ، و نبذ كل من ينسبّ به ، فأبو نواس و العرب نقيض ، و هذا يكمن في أنّ زمن أبو نواس هو زمن تغلب عليه الحضارة ، و زمن العرب هو زمن تغلب عليه البداوة ، فالحضارة نقيض البداوة باعتبار هذه الأخيرة ترى في الماضي ما يخدم المستقبل ، و الحضارة عندهم كنزها الماضي ، فمن لم يعرف ماضيه

1 - زين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الأدب العباسي و الأندلسي ، ص 201.

2 - ديوان أبي نواس ، ص 27.

* - درس: عفا و تغير.

3 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 134.

4 - ديوان امرئ القيس ، دط ، دار بيروت للطباعة و النشر ، 1986 ، ص 29.

لم يعرف حاضره ، أما الحضارة فترى مسيطرة العصر الذي فيه و معالجة الحاضر بالحاضر ، و ليس بالماضي ، فهي ترى فيمن يتمسك بالماضي أنه خائف من الحاضر و المستقبل.

و بدأ تبقى الحضارة و البداوة ضدّان ، و يبقى أبو نواس المتحصّر بثقافة الفرس ضدّ عنيف مع العربي المنكمش على نفسه ، و الذي تحجّر عقله في بكاء الطلّ ، و هكذا رفض أبو نواس عيش الطلّ و فضلّ ابنة الكرم ، فخاصم المتمرّدين عنها و هم العرب ، و بدأ كانت نزعتة الشعوبية.

إنه أبو نواس العظيم مع نفسه ، أسير الذات ، لا يرى فيها غيرها ، و شعوبية أبي نواس لم تكن عنصرية بحتة ، لم تقم حاجزا بين العرب و الفرس كتلك السّمة الشّوفينية ، لم يجاهر بسيفه و قلمه لتقويض عرش الإسلام و العروبة ، و لم يطلب هذه النزعة من وراء خمرياته و لا حتى من وراء استهتاره بالدين ، فتفضيله للفرس كان معنويا لا حسّيا ، فلم يطلب الحضارة الفارسية كنظام حضاري جديد و بديل عن النظام العباسي المتقهقر ، فكل هذا لم يكن له شأن عند أبي نواس ، و إنما نادى بالحضارة الفارسية لأن لذّته عشقت خمرياتها ، و حريّاتها في العبث و اللّهُو ، فأبو نواس رأى الحياة في ذاته ، و رأى الذات في المتعة ، و رأى المتعة في الكأس ، و رأى الكأس في الفرس لا في العرب ، و من ثمة فهو ينازع من يرمي الكأس ، و يناطح من يقف في سبيل متعته ، و يقارع من يقمع حرية ذاته ، و ينبذ مجارة أولئك في حياته ، فهو فضلّ الفرس على حساب لذّته و متعته ، و بهذا فأبو نواس خادم لذّاته و نفسه و ليس للفرس و لا العرب ، فهو حتّى و إن مال إلى الفرس و كانت هذه الأخيرة تعترض طريقه ، فإنها سوف لن تنجو من مكالب أبي نواس ، فهذا الرجل حصر حياته في الخمرة و اللذّة ، و لا يقيم وزنا لما بعد هاتين.

فأبو نواس صاحب الإثنين (العرب و الفرس) ، إذ نادى خلفاء العرب و خالط المجرّان من فرس و روم ، فكان يصاحبهم بما يحقق له مصلحته ، لا لشيء آخر يحب من أحبه بالخمرة ، و يكره و يهجو من منعها عنه سواء أكانوا عربا أم عجماء ، فأبو نواس حبيبه في الخمرة و عدوّه فيها ، إذ جعل الخمرة دار العدالة بين العرب و العجم ، يطلق سراح من صافحه بالكأس سواء أكان عربي أو أعجمي ، و يسجن من ضرب له فمه عنها من الجهتين (عرب أو فرس) ، فهو عربي أو فارسي بالخمرة ، فهذه الأخيرة هي التي تحدد له أصله ، و نجده في موقع آخر يعلن شعوبيته بأحر من الجمر ، ساخرا من العرب و مفضّلا للفرس ، و هذا التمييز أحدثه أبو نواس من جهة شرب كل منهما لها ، فهو يقول:

و لفراس الأحرار أنفس أنفس¹ و فخارهم في عشرة معدوم².

فهو يرى أن الفرس يحسنون شربها ، و يسمّيهم في موضع آخر "بني الأحرار" و كأن الأعراب عنده بني الرق ، فهو كئى بالأحرار على الفرس لأجل الخمرة ، إذ الفرس عنده إذا تذوّقوا شربوا و أحسنوا الشرب ، و من ثمة نادموا ، و بالتالي يكون شعرهم و هم في تلك الحال أبلغ من شرب بني الرق و هم العرب ، فأبو نواس يعلي من شأن الفرس كونهم إذا شربوا لا يتفاخرون و إنما يذمّون التفاخر عكس العرب الذين و إن شربوا تنافسوا في التباهي بالأنساب و الأجداد³ ، و هو في ذلك يقول:

و إذا أنادم عصبه عربيّة⁴ بدرت إلى ذكر الفخار تميّم

و عدت إلى قيس و عدت قوسها سبّيت تميّم و جمعهم مهزوم⁴.

نلمح في هذه الأبيات قمة من السخرية ، يوجّهها أبو نواس للعرب السكارى الذين يتخذون سكرهم لأجل فخرهم بأحسابهم و أنسابهم ، و يظهر تهجّم أبو نواس و سخريته في لفظة "سبّيت" ، فهو لا يحبذ فخر العربي من وراء سكره ، و بالتالي يفضّل الفارسي المنادم السكر الذي له حسن الشرب و بعيد عن التفاخر ، و هذا يمثل قمة الشعوبية ، إذ هو حاقد على العرب و ما يصدر منهم جرّاء سكرهم ، و باب التهجم على العرب في نمط قصائدهم واسع من طرف أبي نواس ، و هذا يقودنا إلى ملاحظة ثورة أخرى من ثورات أبي نواس على العرب ، و هي:

*** الثورة على نمط عيشهم:**

و في ذلك يقول:

1 - يراجع: خليل شرف الدين ، أبو نواس ، الموسوعة الأدبية الميسرة 1 ، ص 177.

2 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 193.

3 - يراجع: أبو نواس ، الموسوعة الأدبية الميسرة 1 ، ص 186.

4 - ديوان أبي نواس ، ص 193 - 194.

لَتَلَكْ أَبْكَى وَ لَا أَبْكَى لِمَنْزِلَةٍ
حَاشَا لِدُرَّةٍ تُبْنَى الْخِيَامُ لَهَا

كَانَتْ تَحُلُّ بِهَا هِنْدٌ وَ أَسْمَاءُ
وَ أَنْ تَرَوْحَ عَلَيْهَا الْإِبِلُ وَ الشَّاءُ¹.

فأبو نواس يجري مقابلة حادة بين الخمر و بكاء الطَّل ، فهو ينفى بكاؤه لغير الخمرة ، إذ يعلي من مكائنها و شأنها على حساب الطَّل و الحبيبة و الخيمة² ، حيث ينقم على العرب و يستهزئ بهم و بما يفتتحون به أشعارهم ، فقد رأى أن الحياة الجديدة ملتعبة الثقافات ، و لابد أن يكون الشعر ممثلاً عنها ، أو بالأحرى لسانها الناطق ، فهو يعتبر أن الشعر الراقى ما يفتتح بالخمر ، كما يرى أن الرّجل الشّم هو من يتلذذ بها ، و يسعد لحضورها و يحزن لفقدانها ، فيبكي على اندثارها و إتلافها كما يبكي أبو نواس عنها ، فالخمرة هي التي تصنع الرجل و شعره ، و تخلق الرّوح و الدّمع ، و ليس الطَّل من يفعل ذلك ، فالشاعر العربي منحط في نظر أبي نواس و هو يبكي الطَّل ، و قد نظر إلى العرب بهذه الرؤية و من هذه الزاوية باعتبار ابن الحضارة و عاشق لخمرياتها و ودود للفرس الذي تواكب لذته و رغبتة ، و قد أدرج نقمته هذه على العرب من خلال تقوي فيه نزعة الشعوبية.

و هكذا اتّخذ أبو نواس من الخمر طريقاً خالف فيه العرب و ظلّ يتهمّ عليهم عبر نزعة الشعوبية ، فهو الرجل الذي ناطح الثقافة الفارسية ، و بسط جسده للخمرة ، فغرست شوكتها فيه ، حيث بات لا يراها إلاّ و هي في كأسه ، كما بات يرى في أصحابها النبع الصافي و الأصحاب الأحبة الذين يديرونها عليه ، و هم بطبيعة الحال الفرس ، فراح يسقي شعره بها ، كما سقت هي نفسه ، و عاب عن أعدائها إعراضهم عنها ، و هم العرب ، فسخر منهم و تناول عليهم في شعره الخمري ، مستصغرا شعرهم الطَّلّي ، فشكّل الفرس عنده روح العصر و العرب بالنسبة إليه موت هذا العصر ، و أقام للخمرة شأنها ، فلربما جعلها سقاية للقلب و للفكر ، أما الطَّل فلربما عدّه مجموعة من الحصى تحجّر العربي بعدها ، و بهذا فأبو نواس يرى أن الشعر هو ابن الخمرة التي تروي القلب و العقل ، في حين يعدّ الطلل ابن الرمل و الحصى و خليفة العقل المتحجّر ، و من ثمّة فالفرس أقرب إلى قلب أبي نواس على حساب العرب.

و قد أطل و أجاد أبو نواس في إزرائه بالعرب و الأصل العربي إلى الحد الذي اعتبر أن الشعر توأم للعصر المتحضّر³ ، فالخمرة هي من يحمل إثم انعزال أبي نواس عن العرب ، كما أنها المتسببة في تطرّفه عنهم ، و ظلّ يعلن شعوبيته في ذمّ القديم المتحجّر ، محتقرا للحياة البدوية فيها و تفضيل الفرس على العرب ، إذ يقول:

اسقنيها و غنّ صوتا - لك الخير - أعجمًا
ليس في نعتٍ يمنة لا ولا زجرٍ * أشأمًا*⁴.

فكان أبو نواس رافضا و محايدا و متحدّي العرب الطلّيون ، و ناقما و متحايلا على الشعر العربي ، فالخمرة عنده هي المنتخب ، و أبو نواس الناخب لها و المصوّت عليها ، فلو وضعنا أبا نواس بين الخمرة و الحياة البدوية العربية و خيرناه في واحدة منهما ، فأكد أنه يختار الأولى و لو كان هذا الرجل معصّب العينين ، فهو حتّى و إن لم يراها فإن قلبه يخفق لحسّه بها ، و هذا نتيجة تعلقه الشديد بها ، و كونها ابنة العصر المتحضّر الذي يحياه أبي نواس ، فهو يشربها و يتلذذ بها ، و يصفها في سياق تفضيلها

1 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 6 - 7.

2 - إيليا الحاوي ، في النقد الأدبي ، ج3 ، العصر العباسي و قصائد محلّلة ، ط1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1980 ، ص 94.

3 - يراجع: إيليا الحاوي ، في النقد الأدبي ، ج3 ، العصر العباسي و قصائد محلّلة ، ص 94.

* - التكهّن.

** - الطائر الجاري بالشؤم.

4 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 80.

عن حياة العرب ، فلا يكاد شعره الخمري يخلو من نزعة شعوبية ، أو أن هذه الأخيرة هي السمة البارزة فيه¹.

و على الرغم من تطرف أبي نواس عن العرب اتجاه أساليبهم البدوية في الشعر ، و هذا ما نلاحظه في شعره الخمري الذي يظهر فيه طباق الإيجاب بين أبي نواس و العرب ، فالأول عاشق الخمر ، و الثاني عاشق للطلل و الحبيبة ، و هذا ما كرهه أبو نواس في العرب ، و ليس شيء آخر ، و لم يكن داعيا إلى تقويض أركان دولتهم ، و لا محرّضا على قلع أصلهم ، فهو لم يتعرض إلى أي شيء من مثل هذا ، فقد حارب شعر العرب ، إذ شبه شعرهم كرجل حقير متخلف ، منطوي على نفسه ، لا يجزّ رجليه ، و إنما رجلاه هما اللتان تجرّانه ، فأشهر لسانه لمواجهته ، فأبو نواس يسخر من العرب فقط من جهة الشعر ، فإذا رتت ساعة لذته سال لعابه ، و طلب الخمرة لإشباعها ، إذ لم يكتف بشربها و وصفها ، و إنما اصطبغ شعره بها ، و اكتحلت أبيات شعره بها ، كما اكتحلت عيناه برؤيتها.

فهو الرجل الذي يقدر الخمرة و يعبدها ، فدعا الشعر إلى تقديسها أيضا ، كما دعا العربي إلى التغني بها بدل الطلل ، و في رفض العربي لذلك يعدّ عدواً لأبي نواس ، فالخمرة ابنة الفرس ، و هي أم أبي نواس ، و ما على الولد إلا أن يطيع والدته ، و يرضخ لأوامرها ، فهو ظلّ يشمت العرب بسخرية ، أو بالأحرى العرب المقلدين المختفين وراء الرمل و البيداء².

و هكذا اتّجه و انحاز إلى الفرس الذين قابلوه بالكأس و سحروا فؤاده بها ، فهو غارق في بحر الخمرة ، و من ثمة فهو محبّ للفرس الجالبيين لها ، إذ جعل الخمر معيارا لحب الفرس ، فأبو نواس داؤه ذاته ، و دواؤه الخمر ، و صيدليته الفرس ، فهو يرى الحياة مع الفرس ، لأنه يرى في وجه الفارسي قارورة خمر ليس إلا ، فيتعلق به ، و يحبه لأجلها ، فقد صنع من الخمرة صنما يعبده لذاته ، و نستطيع أن نمثّل للعرب و الفرس في نظر أبي نواس بما يلي: العرب كالواد و الفرس كالبحر ، فالواد هو الذي يتدفّق في البحر ، و ليس العكس ، لأن الفرس أصحاب حضارة و ثقافة ، و على رأسهم الخمر ، أما العرب فهم أصحاب بدواة و على رأسها الطلل ، و أبو نواس اختار الفرس و أبغض العرب من أجل الخمرة ، فشعاره في هذه الأخيرة "نعم الفرس" "بئس طلل العرب".

2- في غرض الغزل:

ولع أبو نواس بالغزل كوله بالخمرة ، فهمّ أبي نواس في الشعر واحد ، إذ رأى من الحضارة الفارسية و الحياة الجديدة الشيء الكثير الذي يصرفه عن القديم ، فقد اتّخذ من الشعر مرآة لديناميكية هذه الحياة ، كما اتّخذ منه ثورا ينطح به الأعراب القدامى ، و من الأشياء الجديدة التي جاء بها في هذا الغرض ثائرا من خلالها على العرب هي:

* اختراعه للغزل بالمذكر معاكسا للعرب:

إذ عكس أبو نواس القديم في المقدمة الطللية مناديا بالمقدمة الخمرية ، كما عكسهم في غزلهم بالموثّث ، حيث ابتدع فن الغزل بالمذكر ، و لم يكن للعرب في هذا أية أسبقية ، إذ أغفلوا عنه أو بالأحرى لم يعرفوه³.

فأبو نواس صاحب الفكرة و صاحب الإبداع لهذا الفن ، و لم يتوقف عند حدود هذا الفن ، و إنما جرّح و نقد العرب على عدم معرفتهم هذا النوع من الغزل ، و هذا النوع الأخير بما أنه ليس معروفا عند العرب ، فأكد أنه وليد الحضارة الفارسية ، و هذا يدلّ على عمق تأثر أبي نواس بالفرس مفضّلا إياهم على العرب ، فهو يريد من وراء هذا الفن أن يلثغ و ينقم عليهم ، و فعله هذا نتيجة نزعة الشعوبية ، إذ نجده يقول:

دع الطلل الذي اندثرا
ألم ترّ ما بنى كسرى
منازه بين دجلة و الـ
يقاسي الرّيح و المطرا
و سابور لمن عبّرا
فُرات تقيّات شجرا⁴.

1 - يراجع: إيليا الحاوي ، في النقد الأدبي ، ج3 ، العصر العباسي و قصائد محللة ، ص 94.

2 - يراجع: خليل شرف الدين ، أبو نواس ، الموسوعة الأدبية الميسرة ، ص 186 - 187.

3 - يراجع: ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص (ث.خ).

4 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص (خ).

يظهر من هذه الأبيات إعراض أبي نواس عن الظل الذي يتسم به الشعراء العرب ، و هو إعراض مليء بالسخرية عليهم ، فربما كان يكفي لو أن أبا نواس ابتدع هذا الفن و تغنى به في شعره دون السخرية من العرب أو مهاجمتهم ، فلا شك أن دافعا ما يكمن خلف هذا الإبداع.

الأمر إذن لا يخرج عن الحضارة و البداوة ، عن العرب و الفرس ، فالأولى سمة للرابعة ، و الثانية صفة للثالثة ، فأبو نواس متعطش للحضارة ، جائع للنقمة على العرب المحصورين في قوقعة القديم ، فهو يتغزل في هذه الأبيات ببني كسرى ، و هو نوع من الغزل بالمذكر ، باعتبار معدته ارتوت بالغزل بالمؤنث ، فرأى أن ترتوي أيضا بالغزل بالمذكر ، و هي سمة تقتضيها سلطة الحضارة الفارسية المنعمة على أبي نواس ، فهذا الفن فرضته عليه هذه الحضارة ، أما الغزل بالمؤنث ، فهي صفة بدوية افترضتها الرمال و الصحاري ، فهو يريد أن يعيش و أن يمرح و يلهو ، و هذا وجده مع الفرس ، كما يريد لشعره أن يلتقط أيضا كلماته من هذه الحضارة.

فأبو نواس لا يحب مقولة أن الشاعر صنع كذا و كذا ، و إنما يريد و يحب أن يقال إن الشاعر يصنع كذا و كذا ، فلا ينبغي للفعل أن يحصر في الماضي ، و إنما عليه أن يتخذ صيغة المضارع ، و في نظره أن العرب أبقوا الفعل في الماضي كما أرادهم عقلم المتخلف ، و في ذلك يميل إلى الفرس على حساب العرب ، و لا شك أن هناك نزعة تجرّ لسانه إلى العرب و قلبه إلى الفرس ، إنها نزعة الشعوبية التي تدفعه إلى أن يختار هذه الأخيرة في هذا اللون من الغزل.

فشعوبية أبي نواس تكمن في تجديده للشعر و أساليبه ، فهو اخترع هذا الفن ليضعه حدًا فاصلا بين بداوة العرب و حضارة الفرس ، و هو عاشق الخمرة ، متغزل بدافعها ، و من ثمة ميله للفرس لا يرازه فيه أحد.

3- في غرضي المدح و الهجاء:

شخص أبو نواس هذين الغرضين كرجلين ، واحد يعشق البساط و الآخر يعشق التراب ، الأول يبني و الثاني يحرق ، و أبو نواس أرضه إسمنتية و ليست ترابية ، إذ لم يعرف كيف يضرب الفأس ، و إنما عرف فقط كيف يسكب الماء ، هذه هي حياة هذا الرجل ، فضل الأجور على الخشب ، فضل الماء على الفأس ، فضل الحضارة على البداوة ، فضل الفرس على العرب ، عشق السعادة مع الخمر وكره التعاسة مع الرمح ، أحب الحضارة الفارسية و بغض أدوات البداوة العربية ، و من ثمة مدح الأولى و هجا الثانية.

إنّ أبا نواس - كما أسلفنا الذكر - صاحبه في بطنه ، فهو يحب من أحبّه بالخمرة و أشقى غليله بها ، و يذم و يكره من يصرفه عنها ، و هو الرجل العربي في الخمرة و السخّي مع أصحابه فيها ، فنظم شعر المديح ، يمدح به الأسياد و أصحاب السلطة من أجل أن يقابلوه بها ، فهو و بلا شك أنه يمدح مدحا مخادعا ، فنيته واحدة و هي جلب سعادته بالعطاء الجزيل ، يلين لسانه حين تلين عليه الأيدي ، و يقبل حين تقبل الخمرة و يمدح الفرس لأجلها ، و السؤال الذي يطرح نفسه: هل كانت لأبي نواس نية الإشادة بالمدح ، أم هناك دافع خفي وراء مدحه للفرس؟

قد يكون مدحه للفرس مدحا تعسقا من قبيل إزرائه بالعرب ، و مادام مدحه كذلك فإنه قصده مكرها ، فلم تكن لديه رغبة صادقة في مدح الفرس ، ما عدا رغبته في الخمرة التي تلونت سمة جمالية مزيفة ، فهو قصد الفرس عبر نزعة الشعوبية¹ ، فالعرب بقدر شربهم للخمرة ، و بقدر ما يتغنون بها ، إلا أنهم لا يصلون إلى مصافي أبي نواس ، فهو يفضل الخمرة الفارسية المتحضرة على الخمرة العربية ، فالشاعر العربي إذا تغنى بها في شعره ، فإنه لا يوردها إلا بالجزء القليل ، إذ لا يفتح بها قصائده ، فهي ذات مكانة ضئيلة في شعره كما في نفسه ، فبإمكانه الإعراض عنها و في ذلك يخالف أبو نواس باعتبار هذا الأخير لذته تضرب الدّف و هو يغني لها ، و الفرس تصقّق عليها ، غير أن أبا نواس لا يرضيه التصفيق البارد ، و من أجل أن يجعله حارًا أو حماسيا على قلبه اختار مدحهم لإيهامهم بقدرهم و مكانتهم ، و تعدّ الخمرة هي السبب في إعطاء الفرس المنزلة الرفيعة على حساب العرب من قبل أبي نواس.

فستطيع أن نستنتج أنه لو لم تكن الخمرة ، أو لم يتعلّق أبو نواس بها كثيرا لما حضي منه الفارسيون بهذا اللون من الشعر ، فهو جعل من الخمرة قاموسا استلهم منه شعره ، فاز به الفرس و خسر به العرب ، فأبو نواس لم يمدح العرب لأن ليس لديهم ما يقدمونه سواء من حيث شعرهم أم من حيث

1 - يراجع: إيليا الحاوي ، شرح ديوان أبي نواس ، ج 1 ، ص 97.

حياتهم ، فشرع في مدح الفرس نظرا لما تحمله من جانب ثقافي و حضاري و بدأ جعل نفسه حبيبا للفرس و خصما عنيدا على العرب و على تقاليدهم ، و من ثمة أنشد شعرا يهجوهم به ، إذ اتخذ من لسانه سوطا يجلد به التقاليد العربية ، لأنه رأى فيها أنها لا تخدم الواقع المعاش ، و لا تعبر عن حضارة العصر ، و لا تعشق الخمرة ، فقد رآها مربّعة الأيدي ، رأى العربي جلده كطبعه خشن و صلب ، و العصر العباسي يغلب عليه الزغاريد و الرقص ، و هو ما أحدثه فيه الفرس ، فدعا العربي للدخول إلى الحلبة ، لكنّه رأى منه غير هذا ، فهم تراجعوا إلى الوراء ، و هو تقدّم إلى الأمام بجسده و عقله ، غير أنه اختار للسانه أن يبقى في الزنزانة مع العربي ، فبقدر ما افتخر أبو نواس بالفرس و حضارتهم ، هجا العرب و بداوتهم ، و في هذا نجد له نصّا صريحا ، إذ يقول أبو نواس:

فهذا العيشُ لا خيمُ البوادي و هذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى و أين من الميادين الزروب¹؟

فمن خلال هذه الأبيات تظهر شعبية واضحة من أبي نواس ، حين يتغنّى بحضارة الفرس و ألوانها الباهية و أباريقها الخمرية ، و كأنه يضرب مثلا للفرسي بأنه رمز العيش السعيد الزاخر بالمذات ، و هو يذكر ذلك في سياق إطاحته بالعرب ، قصد الفخر من أجل الهجاء ، و هنا يظهر جليا مزجه بين هذين الغرضين ، فقد حصر العربي في قوقعة البدائي لا يعرف إلا شرب اللبن و الحليب ، و مدح الفارسي و سكنه في القصور و البلاط ، و هجا العربي في سكنه للخيم و الزروب ، فالبيت الثاني عبارة عن سؤال ساخر قصد من خلاله إعلاء شأن الفرس و الطعن في العرب.

إنها شعبية باتم معناها لأنه يفضّل الفرس على العرب ، فهو يعايرهم ببداوتهم مواصلا في هجائه لهم إذا يقول:

إذا ما تميمي أتاك مُفَاخِرًا فقل غدّ عن ذا.. كيف أكلك للضبّ؟
تفاخرُ أبناءَ الملوكِ سَفَاهَةً و بولك يجري فوق ساقك و الكعب
إذا ابتدرَ النَّاسُ الفِعَالَ فخذ عصًا و ددع بمعزى يا ابن طالقهُ الدّرب^{*}
فنحن ملكنا الأرض شرقًا و مغربًا و شيخك ماء في الترائب^{**} و الصُّلب².

يظهر أبو نواس من خلال هذه الأبيات مستهزئا ، متمردا ، معيرا للعرب ، مقلّا من شأنهم ، فجعل من نفسه الورقة التي تتبع الساق ، فإذا قام عامة العرب و تميم خاصة و افتخرت بأصلها ، عمل على إيجاد عيب لها ، فهي و إن ألبست الثوب الأبيض لنفسها يأتي هو ليشوّه لها ، و هو الرجل المولع بالهجاء ، و المنبهر بالحضارة الفارسية ، و من ثمة لا يريد لهذه الأخيرة أن ينازعها في ملكها و مكانتها أحد ، أو بالأحرى حتّى و إن نافسوها فلن يصلوا إلى مصافها ، و هكذا فقد أنزل أبو نواس العرب في الأرض و أعلى الفرس في السماء ، و جعل مكانة هذه الأخيرة أسمى من الأولى.

فيرى في العربي أنه مهما افتخر و عدّد مزايه فيبقى أكل للظباء و ما شابهها و كأنه يقول له و إن لك حاجة ، فعليك ألف حاجة ، فيشمت به و يزرى به إلى أسفل الدرجات من خلال معايرته بالبول ، فأبو نواس يجري مقارنة باردة ، فهو يعير العرب بأكل الضبّ و في ذلك أن الفارسي يأكل أشهى أنواع اللحوم ، و هذا رمز عن البداوة و الحضارة ، فتبقى هذه الأخيرة عند أبي نواس ملك للفرس و حدهم ، و لم يتوقف أبو نواس عند هذا الحد ، و إنما سخر منهم في حروبهم و معاركهم باتخاذ العصا سلاحا لهم ، على خلاف الفرس أصحاب السيف ، و هو بذلك يفخر بالملك باعتباره رمز القوة و السلطة ، و هاتان الأخيرتان ملك للفرس لا للعرب ، لأن مشايخهم ضعافا ليست لديهم قوّة لرفع أعناقهم فوق متونهم³.

و تبدو شعبية أبي نواس هنا بارزة ، حيث أنه يذمّ العربي و يتناول عليه من أجل أن يعلي من شأن الفارسي ، و هو بهذا لا يذمّ الأصل و إنما يذمّ البداوة ، ذلك كونه تذوق الحضارة و أدمن عليها ، فرأى أن يكون العربي مثل ذلك ، فهنا لا مجال للشك أن يكون أبو نواس باغضا للعرب و بداوتهم ، و عاشقا للفرس ، و هذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على نزعة الشعبوية.

1 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 12.

* - كناية عن كثرة الإسهال.

** - عظام الصدر.

2 - المصدر نفسه ، ص 510 - 511.

3 - يراجع: شرح ديوان أبي نواس ، ج 1 ، ص 153.

و الهجاء عند أبي نواس غرض لا يقل أهمية عن الأغراض الأخرى ، لكنّه يتفوق عليهم بالكلام ، فمثلا في المدح لا يحط من قدره و يعلي من شأن الممدوح إلى أن يبلغ به النجوم و الكواكب ، لكنّه في الهجاء يجعل فخره بمن يجعلهم يناطح السماء ، و يرنو بقدره إلى أن يجعله يسبح فيها ، فهجاؤه يغلب عليه الكلام الفاحش و المقذع ، و هذا و إن ضرب به وجه العربي فإنه يسيل منه الدم لا الدمع ، فخنجر أبي نواس اختارت العرب بالأساس لأنها ألقت لحمة الفرس الطريّة.

و ما يمكن استخلاصه من كل ما سبق ، أن شعر أبي نواس مليء بالتهنّئ و التهكم و المجون ، و قد تكون هذه الأغراض التي اخترناها طبقا لما يوائم بحثنا هذا متضافرة ببعضها البعض ، فالخمرة مؤدّية إلى الغزل ، إذ السكران لا يعرف ما يقول ، فالخمرة هي التي تخيّر له كلماته ، ثم إنّ عاشق الخمر هو عاشق لنفسه ، يطلبها من أجل إرضاء الذات ، و بالتالي يجهد نفسه في التضرّع إلى أصحابها من الإكرام و العطاء ، و قد أنشدهم في ذلك شعرا مادحا لهم ، و الخمرة بدورها ابنة الحضارة ، و ليس كل الناس خاضعين لها ، و هذا الرجل العربي مادام غارقا فيها فأكيد أنه لا يرى أحد سواها ، و بالتالي حتى يكون وفيها لها ، لا بدّ أن ينازع من ينازعها و ينازع فيها ، و في ذلك لم يشهر سيفا و لا رمحا ، و إنما أطلق العنان للسانه حتى يهجو أولئك المتطرّفين عن الحضارة ، و بهذا تعدّ هذه الأخيرة صاحبة الملهى ، و عدّ أبو نواس داعية لها.

لكنّ المتمعن في كل ما قلنا يجد ما يلي:

- أن أبا نواس هو ابن العصر العباسي ، و هذا الأخير شهد حضارة الفرس فألفها و عانقها ، فقد نشأ بين أحضانها و تذوق من ملذّاتها حتى صار لا يتذوق غيرها.
 - كبرت في أبي نواس نزع غرست منذ النشأة ، فظروفه جعلته بارد القلب ، صاحب اللذة متعطش إلى اللهو و المجون ، و الفرس لم تترك هذا الرجل يذهب سدا و إنما جلبته لصقها بإغرائه بالملذّات.
 - شهد أبو نواس تمازج حضاري ، و عين الحضارة هي الخمرة ، فهو العاشق لها ، و من ثمة سارع إلى مدح أمرائها من أجل التقرب إليهم.
 - اتّخذ أبو نواس من الحضارة و الخمرة وسيلتان ألف فيهما شعرا ضخما ، فهو حتى و إن كانت له موهبة الشعر ، و قد صنع منها منذ طفولته إلا أن الحضارة جعلت لسانه يجري على اليابسة.
 - لم يرفض أبو نواس ما يناقض الفرس في حضارتها فقط ، و إنما رفض من لم يلتقط بصوّارته حداثة هذا العصر ، و لم يعش وفقا لطبيعته.
 - حمل أبو نواس المشعل فوق رؤوس الفرس تأييدا لحضارتهم من جهة ، و تلبية لملذّاته من جهة أخرى ، و حمل المشهب في وجه العرب رافضا لتقاليدهم البدوية التي لا تخدم هذا العصر.
 - فضّل أبو نواس الفارسي على العربي ، و من هنا كانت شعوبيته.
- فما هي حقيقة هذه الشعوبية التي يحملها أبو نواس ؟ ، و هل تحمل المعنى نفسه الذي هو الإعلاء من شأن الفرس و الحط من شأن العرب ؟ ، أم أنّ لها معنا آخر ؟ .
- كل هذه الأسئلة يجاب عليها في مطلب آخر.

حقيقة شعوبية أبي نواس:

إن علاقة أبي نواس بالفرس و العرب هي علاقة أصل و نسب ، فأبوه عربي و أمه فارسية ، لكن ميله للفرس على حساب العرب راجع إلى طبيعة العصر و طبيعة نفسه الميالة إلى ذلك ، و لم يجد عند العرب ما يلائم طبعه و سلوكه و مبتغاه ، فابتعد عنهم و عاب عليهم ، و تعييبه لهم مقتصر على ثلاثة أشياء:

- عاب عليهم بكاء الطلل ، بحجة أن الخمر أحق أن يبكي عليها.
- عاب عليهم عدم ابتكارهم لفنون الشعر ، كونه تأثر بالحضارة فابتدع فن الغزل بالمذكّر.
- عاب عليهم أدواتهم البدوية ، منها العصا.

فمجمّل القول أن هجاء أبي نواس للعرب اقتصر على التقاليد العربية البدوية الموروثة عن القديم في عصر يتطلّب النشوة و السرعة ، فلو قيل أنّ أبا نواس شعوبي من خلال الخمر بحكم تعلّقه بها ، و تعلّقه بالفرس من أجلها ، و من ثمة بحكم أن الخمرة صفة محرّمة في الإسلام ، و الإسلام دين محمد - صلى الله عليه و سلم - ، و محمد - صلى الله عليه و سلم - عربي بالأساس ، و منه فالعرب أكثر التصاقا بهذا الدين ، و عليه فأبو نواس يعدّ عدوّا للعرب و الإسلام ، و لو توقف الحكم عند هذا الحد لضاع أبو

نواس مع تيار البرامكة في محاربة الشعوبية ، الذي تجسّد هناك ، بمعنى لو كان أبو نواس من جهة الخمر شعوبي لكان من الأوائل المستهدفين من قبل التيار اللاشعوبي ، لكنّ الأمر مختلف تماما إذا لم يكن شعوبيا من هذه الوجهة ، و لم يدخل الخوف إلى قلوب الخلفاء و أصحاب هذا التيار ، إذ نظروا إليه بعين الرحمة و الإعجاب ، و اتخذوا من شعره عامة و خمرياته خاصة ملاذا يتودّدون لسماعها ، و لربّما كانت صراحتة من خلال خمره و مجونه هي الوسيلة إلى شفاعته ، فلو رأوا أنه شعوبي لكان له واحد من اثنين: إما يصرّفونه عليهم أو أنه يقتل ، و كلا الأمرين هما انقطاع لحياته ، و منه فأبو نواس لم يكن شعوبيا له شأنه من جهة الخمر¹.

و أبو نواس في تعييه للقديم ، كان صادق الرؤية ، فلم يشمت بالعرب و لم يسخر من تقاليدهم إلا و هو حامل لنمط التغيير ، فبقدر ما نبذ عقليتهم الجاهلية ، بقدر ما أسس للجديد ، و من ثمة فسخريته لم تكن عداء منثورا ، و إنّما جعلها دعوة لتخطّي عتبة التحدّر في وسط تطفو عليه الحضارة ، و كأنه يقول نفسي و إياكم للتعبير عن متطلبات هذا العصر بما فيه كلّ أشعاره و بخاصة الخمريات ، فهو لم ينشد إلا بما يشعر ، و لم يطالب إلا بما يوجد ، و لم ينبذ و يدعو إلى تركه إلا بما بعدم فيه ، و هكذا جعل من شعره و شخصيته مرآة لعصره.

فجوهر القول أن سخرية أبي نواس من الشعراء الجاهليين و من تقاليدهم لم يكن تهجّما و عنفوانا و إنّما سخرية تضمّنت في طياتها دعوة إلى مواكبة العصر الحضاري ، و بهذا فإنّ أبا نواس لم يكن شعوبيا ، فهو لم يكره العرب كعرب ، كما هو مفهوم الشعوبية ، و إنّما كره و سخر من تقاليد هؤلاء العرب ، و من ثمة نفيّت هذه النزعة عنه ، فلم يظلمه أحد بها سواء أكان ناقد قديم أو حديث منصف². ثم إنّ المتمعّن في قصائد خمرياته يجد أنّ كل ما فيها هي شماتة ساخرة بالقيم و العادات العربية ، فلم تكن دعوة لإطاحة حكمهم و لا قلع شوكتهم من الأصل ، كما فعل غيره من الشعوبيين ، و إنّما تمثّلت – كما أسلفنا الذّكر – دعوة تجسيدية للإلمام بهذا العصر ، و الثورة على التقاليد العربية الموروثة ، إنه الرجل الذي توأم العصر الحضاري ، إذ أن اهتمامه انصبّ على أمرين: الأول و هو الإندماج الشخصي في هذا العصر ، و رسم صورة له توافق ديناميكته ، و الثاني هو التحدّر من ربة التقاليد العربية القديمة البعيدة عن الحضارة الغارقة في البداوة ، و بدأ فإنّ أبو نواس لم يكن شعوبيا شوفينيا ، إذ لم يحمل تلك النزعة التي تدعو إلى التفريق و التمييز بين الشعوب ، و إنّما كان يحمل نزعة خمريّة حضارية تدعو إلى التمسك بها و طرح ما سواها ، فأبو نواس شخّص شعره كما خصّص شخصيته لإعطاء رؤية جمالية تتبثق من روح هذا العصر ، و من ثمة كان ميله إلى الجانب الحضاري الفارسي ، ناهيا عن التقاليد العربية ، داعيا إلى الإلتحاق بركب الحضارة ، فأبو نواس بغض العمل و ليس الأصل ، و بهذا لم يكن شعوبيا³.

و هكذا تبقى الأصداء متضاربة حول شعوبية أبي نواس ، فمنهم من يرى:

- أن شعوبيته ليست كذلك النزعة التي تدعو إلى الحطّ من شأن العرب و الإعلاء من شأن الفرس ، فهذه النزعة تركّز على الأصل ، أما شعوبية أبي نواس خرجت عن هذا المعنى ، فهو الرجل الماجن ، الضاحك ، المستهتر ، يختصر الحياة في كأس من الخمر ، فليست لديه رغبة في أن يشارك لذّته بشيء آخر ، و بدأ رأى الحياة تعجّ بالحركة ، و رأى أنّ عصرا يغلب عليه النفوذ الفارسي ، و رأى في هذا الأخير ما يبتغيه ، و هو الرجل السهل المنال ، لاح بيده ، و عانق هذا العصر المتحدّر ، فأحسّ بدفء لذّته فيه ، و شعر بالبرد القارص في العودة إلى الماضي القديم ، فهو لا يحس بالسعادة إلا و هو في أحضان الفرس ، و من ثمة صرخ في وجه العربي المنكمش على نفسه ، فزجره بلسانه ليعود و يلتقط أنفاسه من هذا الهواء الذي يبعث نسيمه الحضاري.

فأبو نواس رأى أنّ هذه التقاليد الفنية لا تخدم هؤلاء المقلّدين في وقت تزوجت فيه الحضارة ، فهو لم يرى أن الأصل العربي لا يخدم الحضارة ، فسخطه إذن كان على تلك القوالب المضاربة في القدم الحاضرة في هذا العصر ، فالأشخاص العرب المحدثون عاشوا الزمن الحضاري بأجسادهم و عاشوا الزمن القديم بأفكارهم و عقولهم ، و هذا ما رفضه فيهم أبو نواس ، و منه فدعوته هنا اتّخذت أمرين

1 - يراجع: خليل شرف الدين ، أبو نواس ، الموسوعة الأدبية الميسرة 1 ، ص 179 – 180.

2 - يراجع: المرجع نفسه ، ص 181.

3 - يراجع: خليل شرف الدين ، أبو نواس ، الموسوعة الأدبية الميسرة 1 ، ص 187.

و التزمت بهما: أمر تمثّل في ترك الطريقة القديمة في الإنشاء ، و الآخر في ترك التقاليد العربية في المعيشة ، فهو لا يحب التغني بالطلّ كما لا يحب القتال بالعصا ، إذ يفضل و يحتمّ التغني بالخمرة و القتال بالسيف و الرمح¹.

و منهم من يرى أيضا:

أن أبا نواس كان رأسا من رؤوس الشعوبية بأتم معناها ، يستشقّها القارئ و الكاتب و المستمع من خلال أشعاره التي تعجّ بمظاهرها من إباحية و كفر و زندقة ، و كذا من تعصّب شديد للفرس ، و سخرية متطولة ، و استهزاء لاذع بالعرب ، فشعوبيته تراوحت في أشعاره من خلال أمرين: الأول حسّي يخصّ انتماؤه النفسي و الفكري في جانب العقيدة ، و الثاني مادي تمثّل في ميله للفرس و تعلّقه بهم².

و البحث عن الإباحية عند أبي نواس تتضح من خلال أشعاره في الخمر ، و هذه الأخيرة شكّلت نسبة مئوية هائلة فاقت سائر فنونه ، فالخمرة جعلها أبو نواس كزبد البحر تطفو فوقه من جهة ، كما جعلها كالسمك الذي يسبح فيه من جهة أخرى ، و بين الأعلى و الأسفل توجد بقية الفنون ، لكن تبقى سلطان هذه الفنون ، فهي متغلّطة فيها ، و قد تعلق أبو نواس بالخمرة إلى درجة لا توصف ، و لو صحّ لنا القول في هذا المجال لقلنا أن أبا نواس يحمل لقب الخمرة ، و الخمرة بدورها تحمل اسمه ، و لم يتخذها أبو نواس كشراب يتلذّد لتذوّقه فحسب ، و إنما اتّخذها كشراب و أداة يضرب بها أعناق العرب ، فيرى أنها أحق بالأولوية في كل شيء.

و نداؤه هذا كان بدافع غرضين من أغراض الشعوبية هما:

- الأول: تمجيد الخمرة و الإشادة بها و إشاعة الإباحية.
 - الثاني: التهكم بالعرب و الحطّ من شأنهم ، و الابتعاد عن أساليبهم و عاداتهم التي يتمسكون بها ، و هذا كلّ من أجل إقصاء عليهم جانب الفخر بهذا التراث القديم³.
- فأبو نواس تحيّل على نفسه بالخمرة ، كما تحيّل على العرب بها ، فقد اتّخذها لنفسه رمز التحضّر ، كما اتّخذها للشعر أغنية متفتّحة ، و قد نال العرب من أبي نواس نقدا حادا و ازدراء واضحا ، فهو يقول مستهزئا بالعرب و أسلوبهم في الشعر ، و ليس هذا فحسب ، و إنما يدعو عليهم بدوام البكاء:
- لا يُرقي* الله عيني من بكى حجرا و لا شفى وجد** من يصبو*** إلى وتد
دع ذا: عمدتك و اشربها معقّة صفراء تعنق بين الماء و الرّيد
كم بين من يشتري خمرا يلذ بها و بين باك على نوي و منتضد⁴.
- فكأن بأبي نواس يقول لا شفقة على من يبكي حجرا ، فمن خلال دعائه نلمح نوعا من الحقد على العرب المنغمسين وراء الطلّ ، و هذا الدّعاء يبرّره شيء واحد و هو الدافع التحزري الذي تملّيه عليه الخمرة أم الحضارة.

فأبو نواس يريد أن يقول لهم: ألم تروا هذا حتّى تعلّقتم بذاك ؟ ، فهو يدعو على العرب و يستهزئ بهم ؛ و استهزأه توضيحي ، إذ أن أبا نواس لم يدعهم إلى ترك الطلّ و سكت و لم يدع عليهم بدوام البكاء ماداموا جامدين عقليا كجمود ذلك الرسم ، و إنما يقرن هذا و ذاك بنوع من التبيان ، فهو يرسم لهم صورة توضيحية يبيّن فيها أهمية الخمرة في النفس ، و ما تحقّقه بالنسبة له كطالب الحياة الدنيوية لا كطالب الحياة الأخروية الدائمة ، فهو طالب للنشوة لا للحقيقية ، و هو في ذلك يختلف مع العرب ، فالعرب يتمسكون بالشيء لكنّ أبا نواس يتخلّى عن الشيء بشيء آخر وفق ما تملّيه عليه لذّته و حياته الماجنة.

1 - يراجع: مصطفى بيطام ، مظاهر المجتمع و ملامح التجديد ، ص 374 - 375.

2 - يراجع: محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن 03 هـ ، ص 290.

3 - يراجع: المرجع نفسه ، ص 291 - 292.

* - رقاّ الدّمع: جفت و سكن.

** - حزن.

*** - يحن.

4 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 46.

و يواصل أصحاب هذا الإتجاه الذين يقرّون بشعوبيته ، من خلال تناولهم لأشعاره ، إذ يجدونه في موضع آخر يدعو بالسقيا لغير العرب – أرباب الإبل و الخيام – فيقول:

سَقِيًّا لِغَيْرِ الْعِلْيَاءِ* وَ السَّنْدِ**
وَ غَيْرِ أَطْلَالِ مَيِّ*** بِالْجَرْدِ
وَ يَا صَبِيْبَ السَّحَابِ**** إِنْ كُنْتَ قَدْ
لَا تَسْقِيْنُ بِلْدَةِ ، إِذْ عُدَّتِ الْـ
بلدانُ كانت زيادة الكبد!

فإذا قارنا بين هذا القول و القول الأول نجد أن أبا نواس في الأول استهزأ بالعرب و أسلوبهم في الشعر ، لكن في هذه الأبيات نجده يدعو بالسقيا للجميع ما عدا العرب.

في القول الأول قد يجد الباحث و القارئ لأبي نواس عذرا ، و من ثمة ينفي عليه صفة الشعوبية ، إذ أن قوله ارتكز على أسلوب العرب في الشعر ، و دعوتهم للالتحاق بركب الحضارة ، لكن ما يعارض من ينفي شعوبية أبي نواس هو القول الثاني الذي لا يخرج فيه أحد من الدارسين على شعوبيته ، فهذا الشاعر يستسقي و دعوته في ذلك استثنائية ، و استثناءه مقتصر على العرب.

أفلا نلمح في هذه الأبيات شعوبية حاقدة من طرف أبي نواس على العرب ؟ ، فأصحاب هذا الإتجاه يقرّون بشعوبية أبي نواس تلك التي تقول الإعلاء من شأن الفرس و الحط من شأن العرب ، يستندون لحجج شعرية إيضاحية ، فأبو نواس انتقل من استهزائه بالتقاليد العربية الموروثة في الحياة العصرية الحضارية إلى بغض العرب كعرب ، و هو ما نلمسه في دعواه بالسقيا لغير العرب ، و لو كان غير كاره للعرب لتوقّف عند تعييبه لأساليبهم و تقاليدهم ، لكن الأمر وصل به إلى دسائس حقدية غرست في نفسيته اتجاه العرب ، و تعدّ الخمرة هي الدافع من وراء ذلك.

فقضية أبي نواس تجاه العرب أشبه ما تكون بمعادلة رياضية ، شيء يستلزم شيئا آخر ، فهو بدأ قوله بالاستهزاء تجاه هذه التقاليد الفنية الموروثة في الشعر ، ثم تدرّج في احتقاره لهم ، لينتقل إلى الدّعاء عليهم تبعا لفعالهم ذلك ، بعدها يدعو إلى الحاجة لغيرهم ليختمها بطعنه لهم ، فقد وصفهم بي اللّخناء لأنهم من ولد هاجر² زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام ، و هي أمة ، فالعرب من أبناء سيّدنا محمد و إسماعيل بن إبراهيم - عليهم السلام - ، و أبو نواس لمّا وصفهم ببني اللّخناء ، و اللّخناء – كما أسلفنا الذكر - من الإماء الممتحنة ، و اللّخن هو نتن الريح ، فهو كان يقصد الطعن فيهم و معايرتهم ، و قد أخطأ في ذلك إلى حد كبير ، و يعدّ أكبر عيب عليه و ذلك لأمرين عظيمين:

• فالأول: أنه أغفل عن عظمة هذه المرأة عند سيّد الأنبياء إبراهيم عليه السلام و عظمتها عند الخالق عز و جل.

• و الثاني: أنه نسي أنه عربي من جهة أبيه.

فأبو نواس معادلته كانت على الشكل التالي:

استهزاء + احتقار العرب + الدّعاء عليهم + الطعن فيهم ، و هذا يستلزم كره للعرب ، و بالتالي شعوبية منه ، و مواصلة لنفس السياق ، يقول أحمد عبد المجيد الغزالي: "نقرّر أن الحسن بن هانئ أحد الشعوبيين الغلاة"³.

فقول الغزالي فيه تقرير و التّقرير فيه تأكيد ، فهو يقرر شعوبية أبي نواس تبعا لما قام به هذا الأخير من تهجّم و احتقار للعرب و تفضيل الفرس عليهم و ذلك كله من خلال أشعاره.

و رغم ما يصنع أبو نواس للعرب من احتقار و طعن لهم ، إلا أنه يلبس أحيانا ثوبا مزركشا ، إذ ينتحل فيه النسبة العربية ، فقد انتسب لأكثر من قبيلة عربية بدأ انتسابه إلى بني بكر بن وائل ، ثم إلى بني تميم و بعدها إلى اليمن ، و من ذلك نجد قوله:

أبا منذرٍ ما بال أسباب مذحج*
مرجّمةٌ* دوني و أنت صديقي

* - العالية.

** - ما قابل من الجبل فوق السفح.

*** - اسم امرأة عربية.

**** - المطر.

1 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 52.

2 - يراجع: محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن 3هـ ، ص 424.

3 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص (ث).

* - قبيلة عظيمة من اليمنية.

فإن تأتيني يَأْتِكَ ثَنَائِي و مِدْحَتِي و إن تَأب لا يُسَدِّدُ عَلَيَّ طَرِيقِي¹.
و في ذلك نلمس نوعاً من التلاعب النسبي الذي يتّخذهُ أبو نواس ، فهو يفتخر بالفرس و يشيد بحضارتهم ، و يذمّ العرب و يحتقر بداوتهم ، لكن ينتسب إليهم ، و هذا يحيل إلى عدة أشياء هي:

- أن أبا نواس لم يحب الفرس كفرس و أصل و نسب ، و إنما أحب فيهم الخمرة.
- أن أبا نواس اصطحب الفرس من أجل الحياة الحضارية الماجنة.
- أن أبا نواس ادّعى النسبة العربية من أجل السمعة.
- أن أبا نواس لم ينتسب إلى كل القبائل العربية ، بل اختار بعضها و أعظمها ، و ذلك لأجل قصد خفي.

فلنسبهُ أبي نواس إلى العرب نسبة تلاعبية ، يخالف فيها الحقيقة ، فلم يكن أبو نواس من العرب في شيء ، و يقول في هذا الشأن "مصطفى الشكعة": " و ربما لم ينل شاعر من مروءتهم نيل أبي نواس منهم"². فهو في مواضع أخرى يتهجم على بعض القبائل التي انتسب إليها ، فهو بفخر عليها لا بها ، مما يؤكد أن شعره توأم لشخصيته ، و هاتان خيال توحى بهما الخمرة ، إذ يقول في تهجمه على قبيلتي تميم و بكر:

تراثُ أُو شَرَوَانَ كِسْرَى و لم تكن موارِيثُ ما أَبَقْتَ تَمِيمُ و لا بَكْرُ³.
فأبو نواس يفتخر بأل شروان على حساب قبيلتي تميم و بكر ، و لم يكتفِ أبو نواس بسبّ العرب و إنما تطاول في شتمه أيضاً للموالي الذين يدعون النسبة العربية ، و من ذلك نجد قوله:

الهِيمُ بن عَدِيٍّ صار في العرب !
و لست من طيبي إلا على شَعْبٍ**
فقدّم الدال قبل العين في النُسبِ***
الحمدُ لله هذا أعجبُ العَجَبِ
يا هَيْمُ بن عَدِيٍّ لست للعربِ
إذا نسبتَ عدِيًّا في بني نُعلِ

كأنتي بك فوق الجسر منتصباً على جوادٍ قريبٍ منك في الحَسَبِ⁴.
فأبو نواس يتهجم على "الهيثم بن عدي" في ادعائه النسبة العربية ، و كأن هذه الأخيرة تزعج أبي نواس و تقلقه ، فيعمل هو الآخر على إزعاج أصحابها باختيار الكلمات الساخنة و المفاتيح لهجائهم. و ثورته على القديم باسم التجديد لم تخل من نزعة شعوبية هدامة⁵ ، و عن ذلك يقول الدكتور "طه حسين": "إنه لم يكن مذهبا شعريا فحسب ، و إنما هو مذهب سياسي أيضا ، يذم القديم لا لأنه قديم ، بل لأنه قديم و لأنه عربي ، و يمدح الحديث لا لأنه حديث ، بل لأنه حديث و لأنه فارسي ، فهو إذن تفضيل الفرس على العرب ... مذهب الشعوبية"⁶.
فهذا القول احتوى على أربعة أفكار أساسية و هي:

- الشعوبية مذهب سياسي.
- ذمّ القديم لأنه عربي.
- مدح الحديث لأنه فارسي.
- تفضيل الفرس على العرب.

** - غامضة لا يوقف لها على حقيقة.

1 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي، ص 602.

2 - مصطفى الشكعة ، الشعر و الشعراء في العصر العباسي الأول ، ط5 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1980 ، ص 273.

3 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 102.

* - النزاع.

** - إذا قلبت تصبح دعيا.

*** - يقول أنه من نسب البهائم.

4 - ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص 524.

5 - محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن 3 هـ ، ص 306.

6 - طه حسين ، حديث الأربعاء ، مج2 ، ص 410.

إذن هذا هو مفهوم الشعبوية ، فلو أسقطنا هذا الكلام على أبي نواس أو حاولنا أن نبيّن محل معنى هذا الكلام في شخصيته ، نجد أبا نواس كان يذم القديم ، وفي ذلك ذمّ للعرب ، كما أنه كان يدعو إلى الحديث باعتبار حضارته ، و من ثمة هو يمدح الفرس الجالبيين لهذه الحضارة ، فالنتيجة إذن هو يذم العرب و يمدح الفرس ، و بالتالي هو يفضل هذه الأخيرة على الأولى ، و منه فأبو نواس حسب هذا القول "شعوبي سياسي".

و مهما قلنا عن أبي نواس ، و انقلبنا في كلامنا عنه يبقى كلامنا متقلّب طبقا لانقلاب شخصيته ، فشخصيته أشبه ما تكون بالمناخ ، فهو يزهو في ربيع الخمرة ، في ربيع الحضارة الفارسية ، و إذا ما جاء فصل الشتاء يتقمص الشخصية و النسبة للطرفين من أجل الدفئ و الحماية و رغم أن نسبه – كما أسلفنا الذكر – يجمع بين العرب و الفرس ، إلا أنه فضلّ الفرس لأن نفسيته و لذّته يطلبان ذلك ، فهو لم يعشق الخمرة لأنه يعشق الفارسي ، و إنما أحبّ هذا الأخير لعشقه الخمرة.

الخاتمة

امتزج بني العباس بالفرس ، و من ثمة امتزجت البداوة بالحضارة ، و غدت هذه الأخيرة مهيمنة على هذا العصر أوّلا و على أبنائه ثانيا ، و لم تأت الحضارة من عدم ، و إنما ساقها الفرس ، و قادوا بها العرب ، فمن العرب من اختار لأن يكون رعيّة لأولئك القادة ، و منهم من تعنّت و بقي متمسكا بالتراث القديم محافظا عليه ، كما تحفظ البيضة من الكسر ، و الحضارة التي سادت في هذا العصر ، و بالرغم ما يحمله اسمها من معاني ثقافية و تطورية ، إلا أنها خلّفت آثارا مأساوية خصّت الجانب الأخلاقي بالدرجة الأولى.

تجرّد الفرس لحمل لقبهم ، و إعلاء مكانتهم ، و قهر من سواهم فأحدثوا تمييزا بينهم و بين العرب ، و هذا ما يسمّى بمذهب الشعبوية.

كان مصطلح الشعبوية وليد العصر العباسي الأول ، بالرغم من أن له جذور قديمة ، و تبقى الشعبوية النزعة المتطرفة عن العرب ، و التي اعتمدت في عملها على عدة أساليب لبلوغ غايتها. ضمّت الشعبوية أقواما كثيرة من أمثال البرامكة و الهنود و بنو سهل ، فكما ضمّت الشعبوية جماهير شعبية ، ضمّت أيضا جماهير مجتمعيّة ، إذ كان منها الشعراء و الأدباء و الحكّام. لقيت نزعة الشعبوية ردود أفعال كثيرة على حدّ ما فعله الجاحظ و ابن قتيبة الذين سخّروا ألسنتهم و أقلامهم للحدّ من شوكتها و صدّ هجومها على العرب. زادت حدّة مذهب الشعبوية على الساحة العباسية الفارسية نتيجة ما لقيه هذا المذهب من ترحيب في صفوف الخاصة من الشعراء.

طعن الشعراء الفارسيون خصوصا ، و الميالين للفرس عموما العرب ، و كالوا لهم من المهانة و الحقارة ، و غدا دافع أولئك الشعراء ، إما الدّفاع عن الأصل الفارسي ، أو التّعني باللّهُو الحضاري فيها. كان اللّهُو الحضاري محطة إعجاب لجلّة من الشعراء ، فراحوا يشيدون من خلاله بالفرس ، فهنا الإعجاب بالفرس كان نتيجة الإعجاب بالخمرة و اللّهُو و العبث ، و من أولئك المنغمسين في ذلك كله الشاعر أبو نواس.

عاش أبو نواس شاعرا للحضارة الفارسية و من ثمة شاعرا عدائيا للبداوة العربية. شكّل العرب للشاعر أبي نواس مجرد أناس بدوا رعاة ، لا يعرفون الحضارة ، متحجّرين اجتماعيا و فكريا و ثقافيا.

نادى أبو نواس هؤلاء العرب إلى الإلتحاق بالركب الحضاري الذي أحدثه الفرس ، و الذي يعيشه هو ، غير أن أولئك العرب رفضوا ذلك و فضّلوا الإحتفاظ بتراثهم و تقاليدهم.
انعزل أبو نواس عن العرب ، و انعزله كان نسيبا ، فهو اختار لأن يعيش في حضارة الفرس ، كما اختار للسانه أن يبقى وراء العرب حتّى يرتدعوا و يلحقوه إلى ما هو فيه.
عاير أبو نواس العرب في أساليبهم و نمط معيشتهم ، و هو الشّاعر ، فقد عايرهم أيضا و سخر من أشعارهم تلك التي تبدأ بالتعني بالطلّ و الخيمة و الحبيبة.
هجا أبو نواس العرب و قلّ من شأنهم في مقابل ذلك مدح الفرس و أشاد بحضارتهم ، و في ذلك مدح للخمرة و هجاء للطلّ.
لم يهج أبو نواس العرب فقط ، و إنما هجا أيضا المنتسبين للعرب.
أجهر أبو نواس بمجونه و بولعه بالخمرة لأنه رأى العصر غارقا بها ، و ليس ذلك فحسب ، فقد رأى الخلفاء هم أيضا يشربونها و يتلذّدون بها ، و من ثمّ إذا كان ربّ البيت للدّف ضاربا ، فشيمة أهل البيت الرّقص ، و من ذلك لم يخش أبو نواس على نفسه منهم.
بدا أبو نواس واضحا في سخريته بالعرب كما كان واضحا في جهره بالخمرة ، فكما سلم من عقاب الخلفاء ، سلم أيضا من تيار البرامكة في محاربة الشعوبية.
هناك من نفى عليه صفة الشعوبية ، و اعتبروه مجرد لاه ، عبثي ، ضاحك ، فأنسوا بأشعاره و قرّبوه إليهم ، غير أن هناك من أقرّ بشعوبيته ، فهو الرجل الذي عاش متفنّنا في شعره ، كما ظلّت الحضارة الفارسية متفنّنة في صنعه ، و ذلك التفنّن أسقطه على العرب بهجائه إيّاهم.
إنّ البحث في طريقة عمل أبي نواس في ظلّ مفهوم الشعوبية ، نجد أنّ عمله شبه مقلّد لمعناها ، فهي تعمد إلى الإعلاء من شأن الفرس و الحطّ من شأن العرب ، و هو أيضا سخر شعره لخدمة الفرس طاعنا بالعرب.

يتّضح من مدح أبي نواس للفرس و طعنه بالعرب على أنه شعوبي.
يبقى أبو نواس ابن الحضارة بما فيها من لهو و عبث و مجون ، سلّمت له ملذّاتها كما سلّم هو نفسه لها ، فقد اختار لنفسه أن يعيش بأمر الخمرة ، إذ شغفها حبّا ، و تلذّد بها حتّى أصبح خادما لها ، و من ثمّة خادما للجاليين لها و هم الفرس ، فتبقى الخمرة وسيلة ربط بين أبي نواس و الفرس ، و تبقى البداوة و العيش الكئيب و التحجّر الفكري و الطلّ وسيلة انفصال أبي نواس عن العرب.
لم يبغض أبو نواس العرب كعرب ، و لم يحب الفرس كفرس ، و إنما بغض في الأولى بداوتهم ، و أحبّ في الثانية حضارتهم.

قائمة المصادر

* القرآن الكريم.

- 1- ابن منظور ، لسان العرب ، ج3 ، ط1 ، دار صادر ، بيروت ، 1997م
- 2- أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ط1 ، دار إحياء التراث العربي للطباعة و النشر و التوزيع ، 2001م.
- 3- أحمد مختار عمر ، معجم اللغة العربية المعاصرة ، مج2 ، ط1 ، عالم الكتب ، القاهرة ، 2008م.
- 4- الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، مج2 ، تح: د/ عبد الحميد الهنداوي ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2003م.

- 5- عبد القادر الرّازي ، كتاب مختار الصحاح ، ط1 ، دار الفكر ناشرون و مؤرّعون ، 2007م.
- 6- ديوان أبي نواس ، تح: أحمد عبد المجيد الغزالي ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د ت.
- 7- ديوان امرئ القيس ، د ط ، دار بيروت للطباعة و النشر ، 1986.
- 8- ديوان الأعشى الكبير ، مهدي محمد ناصر الدين ، ط3 ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2003م.
- 9- ديوان بشار بن برد ، إحسان عباس ، ط1 ، دار صادر ، بيروت ، 2000م.
- 10- ديوان حسّان بن ثابت ، عبد أمهنا ، ط4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2004م.
- 11- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج3 ، تح: محمد عبد القادر شاهين ، د ط ، صيدا ، بيروت ، 2007م.
- 12- الجاحظ ، البيان و التبیین ، ج1 ، ج3 ، تح: عبد السلام هارون ، ط7 ، مكتبة الخانجي للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 1998م.

قائمة المراجع

- 1- إبراهيم علي أبو الخشب ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، ط1 ، ملتزم النشر دار الفكر العربي ، 1966م.
- 2- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج1 ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 2005م.
- 3- احمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ط24 ، للمدارس الثانوية و العليا ، د ت.
- 4- أمين أبو الليل ، العصر العباسي الأول ، ط1 ، مؤسسة الوراق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، 2008م.
- 5- أمين أبو الليل ، العصر العباسي الثاني ، ط1 ، مؤسسة الوراق للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، 2007م.
- 6- إيليا الحاوي ، شرح ديوان أبي نواس ، ج1 ، د ط ، منشورات الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب العالمي ، 1987م.
- 7- إيليا الحاوي ، في النقد الأدبي ، ج3 ، العصر العباسي و قصائد محلّلة ، ط1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1980م.
- 8- جرس داود داود ، الزندقة و الزنادقة في الأدب العربي من الجاهلية حتى القرن 03هـ ، ط1 ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2004م.
- 9- حامد حنفي داود ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول من سنة 132هـ إلى سنة 334هـ ، ط2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الساحة المركزية ، بن عكنون ، الجزائر ، 1993م.
- 10- خليل شرف الدين ، أبو نواس ، الموسوعة الأدبية الميسرة "1" ، د ط ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، 2004م.
- 11- زين كامل الخويسكي ، سالم عبد الرزاق سليمان ، في الادب العباسي و الأندلسي ، دراسات و نصوص ، د ط ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر ، 2006م.
- 12- شوقي ضيف ، الفن و مذهب في الشعر العربي ، ط12 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1993م.

- 13- شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ج2 ، العصر العباسي الثاني ، ط4 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1981م.
- 14- شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ج3 ، العصر العباسي الأول ، ط13 ، دار المعارف ، القاهرة ، دت.
- 15- طه حسين ، حديث الأربعاء ، مج2 ، ط2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1974م.
- 16- عباس الجراري ، في الشعر السياسي ، ط2 ، الشركة الجديدة ، دار الثقافة ، المغرب ، الدار البيضاء ، 1982م.
- 17- عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعبوية ، ط4 ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، 1986م.
- 18- فوزي عيسى ، فوزي أمين ، في الأدب العباسي ، د ط ، دار المعرفة الجامعية طبع و نشر و توزيع ، 2008م.
- 19- محمد بنية حجاب ، مظاهر الشعبوية في الأدب العربي حتى نهاية القرن 03هـ ، ط1 ، مكتبة نهضة مصر ، 1961م.
- 20- مصطفى الشكعة ، الشعر و الشعراء في العصر العباسي ، ط5 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1980م.
- 21- مصطفى بيطام ، مظاهر المجتمع و ملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول ، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الساحة المركزية ، بن عكنون ، الجزائر ، 1995م.

الفهرس

| | |
|--------------|-----------------------|
| 02..... | مقدمة |
| 05..... | تمهيد |
| 39 - 10..... | الفصل الأول: الشعبوية |
| 11..... | التعريف بالشعبوية |
| 16..... | مراحلها |
| 24..... | أشكالها |

| | |
|--------------|------------------------------------|
| 34..... | أهدافها و أساليبها..... |
| 36..... | الرد على الشعوبية..... |
| 77 - 40..... | الفصل الثاني: شعوبية أبي نواس..... |
| 41..... | التعريف به..... |
| 46..... | شعره..... |
| 55..... | عوامل شعوبيته..... |
| 56..... | ملامح شعوبيته..... |
| 58..... | تجليات الشعوبية في شعره..... |
| 70..... | حقيقتها فيه..... |
| 79..... | خاتمة..... |
| 81..... | قائمة المصادر و المراجع..... |
| 84..... | الفهرس..... |

